[سورة الزّمر: ثمانون وآيتان][(1)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾

الكتاب: القرآن.

ورفع ﴿تَنزِيلُ﴾ بالابتداء، أو خبره ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ وهو أولى من إضمار المبتدأ، وأيضًا ليس التنزيل نفس السورة، فيحتاج إلى تأويل المصدر بالمفعول.

و﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ على التقدير الأول صلة التنزيل، أو خبر ثان، أو حال عاملها الإشارة المقدرة، أو التنزيل، والكتاب على الأول: السورة، وعلى الثاني: القرآن.

ويقرأ: ﴿تَنزِيلَ﴾ على النصب[(2)]، بإضمار نحو: اقرأ[(3)].

ولعل وصفه سبحانه بالعزيز الحكيم هنا للإشارة إلى أنه الغالب الصادر فعله على وجه الحكمة، فإنزال القرآن بجعله سببًا لإثبات النبوة، ولا يبطله قصد المشركين، وذلك بعزته وحكمته اقتضت إنزال هذا الكتاب المشتمل على أسباب سعادة العالمين وسيادة المنزلين. والانتفاع بالقرآن يتوقف على العلم بكونه كلام الله، وثبت بكون الرسول الثابت نبوته بالمعجز مخبرًا عنه وعلم بالتواتر.

(١) ما بين المعقوفين زيادة من (ج، ح)، ليست في الأصل ولا في باقي النسخ.

(٢) عن عيسى بن عمر وإبراهيم بن أبي عبلة. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص ١٣١)، شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٣).

(٣) في الأصل: (اقرأه)، والمثبت من (ح، ج، د)، وهو الصواب.

والثاني: أن المراد به الموضوعات العربية والشرعية؛ لأنه لو لم يرد بها ذلك كان تجهيلًا، وكل ما كان كذلك لا يصدر عن الحكيم.

ووصف الكتاب بأنه أنزل حال كونه ملتبسًا بالحق والصدق، وعقب ذلك ببيان بعض ما في الكتاب من لزوم العبادة على وجه الإخلاص والإعراض عما سوى الله، وذلك لأن تقديم المخلص يشعر بالحصر، ولا يعلم ذلك إلا بمعرفة العبادة، والإخلاص الأولى قولٌ أو فعلٌ أو ترك واحد منهما [٧٦١/ب] يعلم ذلك بوجوب قبول قول الآمر به لعظمته، والإخلاص أن يفعل ذلك لمجرد الانقياد والامتثال، فإن حصل معه داعٍ آخر لم يكن مخلصًا، فينبغي أن يتجرد عن الرياء والسمعة؛ لأن الله مطلع على السرائر، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[البينة: ٥].

والدين: الطاعة، أو كلمة التوحيد، لا بمعنى أنه لا تضر المعصية مع الإيمان نظرًا إلى ظاهر قول النبي ﷺ حكاية: ((**لا إله إلا الله حصني، ومن دخل حصني أَمِن من عذابي**))[(١)]؛ لأن المراد: الأمن من الخلود، والخطاب وإن كان مع النبي عليه السلام فالأمة مرادة، قيد بما إذا لم يصف الدين بصفة المتدين على وجه التجوز نحو شعر شاعر، وإلا لم يلزم.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾

الأولياء مع آلهتهم، والمتخذين: المشركون وإن لم يجر ذكرهم؛ لدلالة الحال. وإن أريد المتخذين فالضمير محذوف، أي: اتخذهم المشركون أولياء.

و﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ﴾ مقدر بالقول، وعلى الأول هو إرادة المتخذين، فالتقدير: يقول الذين اتخذوا ذلك، فخبر الذين هو: يقولون.

---

(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٤٥١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٦٢/٥، ١١٥/٧، ٣٦٧/٤٨)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال العراقي في تخريج الحياء (١/ ٢٢٧): "إسناده ضعيف جدًّا".

وأصل الزلفى: القربة، ولعل تأويلهم بالشفاعة بدليل خارجي وإلا فمرتبة القربة أعلى من مرتبة نيل الخلاص بالشفاعة.

والله يظهر المحق من المبطل بالحكم بين الموحدين والمشركين فيما يختلفون فيه من الدين، بإدخال الموحد الجنة، والمشرك النار.

والضمير للكفرة ومعبوديهم. والآلهة المقربة قيل: الملائكة والمسيح وعزير، وعلى هذا يكون القول المضمر مع المقول حالًا أو بدلًا من الصلة.

و﴿زُلْفَىٰٓ﴾ مصدر، أو حال.

ويقرأ: ﴿قَالُواْ مَا نَعۡبُدُهُمۡ﴾[(١)]، و: ﴿نَعْبُدُكُمُ إِلَّا لِتُقَرِّبُونَا﴾ حكاية مخاطبتهم آلهتهم[(٢)]، و: ﴿نُعبدهم﴾ بضم النون[(٣)].

ولعل تقديم التهديد على جواب باطلهم ليزول عنهم الجزم بذلك المذهب؛ فإنه يكون أنجح لطلب المقصود، ولعل قوله سبحانه: ﴿لَا يَهۡدِي﴾ يكون محمولًا على ما إذا دام على إصراره ولم يتأمل في الدليل، وحينئذ لا ينفعه الجواب، بل ينفع غيره من الكفرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٤﴾

أي: لا يرشده إلى الحق، فيشمل الدين كما قيل وعدم الجنة أيضًا.

والكاذب: الذي ينسب الألوهية إلى غير الله، وهو عظيم الكفر في تلك النسبة؛ ولهذا يقرأ: ﴿كَذَّابٌ﴾[(١)]، و: ﴿كَذُوبٌ﴾[(٢)].

---

(١) عن ابن عباس ومجاهد. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٣).

(٢) عن أبيّ. ينظر: الكشاف للزمخشري (٤/١١٣).

(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤/١١٣).

فإن قيل: ما وجه تخصيص المبالغة بالثاني دون الأول؟

قلنا: لأن ذلك أمر واحد، بخلاف الثاني، فإنه يلزم منه صنوف الكفر، لا سيما وحمل على كفران النعم، فيتعدد بتعددها.

ومعنى: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ﴾: أنه لو كان الأمر كما زعموا ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ﴾، فإنه لا موجود إلا وهو مخلوقه؛ لما سبق من الدليل على أنه لا واجب غيره، وأن كل من عداه مخلوقه، وحيث لا يماثل بين الخالق والخلق فكيف يتصور أن يقوم مقام الولد له؟! وأيضًا الواحد الحقيقي استحال أن ينفصل منه جزء، ثم يحصل له صورة مساوية لصورة الولد؛ لأن ما له أجزاء يحتاج إليها، فيكون ممكنًا، و ﴿ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ كالدليل على ذلك؛ لأن الإله لا بد له من الوحدة كما سبق من محذور التطارد وغيره [٣]، فيستحيل أن يماثله غيره، فضلًا عن التوالد؛ لأنَّ كلًا من المثلين مركب مما به الاشتراك والامتثال.

و﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ المطلق لا يتصور زواله ليحتاج إلى ولد يقوم مقامه؛ لأنه يكون مقهورًا بالفناء، فلو أراد الله اتخاذ ولد [إلا بأن يصطفي] [٤] بعض خلقه ويقربه إليه كتقرب الوالد ولده، وقد فعل ذلك بالملائكة، فزعمتم أنهم أولاده.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ۝٥﴾

ومما يدل على الألوهية المطلقة المنافية لاتخاذ الولد كونه خالق السموات والأرض، وقد سبق وجه الدلالة غير مرة، ومنه تغشية كل واحد من الليل والنهار على الآخر.

=

(١) عن ابن عباس وسعيد بن جبير والجحدري. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص ١٣١)، شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٣).

(٢) عن زيد بن علي. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٣).

(٣) في (ب، ح، ج، د): (من محذور النظار دون غيره) بدلًا من: (من محذور التطارد وغيره).

(٤) في (ح): (لاصطفى)، وفي (ج، د): (لا بأن يصطفي).

ومعنى التغشية: أن كلًا منهما يغيب به الآخر كغيبة الملفوف عن الحس باللفافة، أو كلف اللباس على اللابس، أو كل منهما يصوره كارًّا على الآخر كرورًا متتابعًا ككور العمامة، أو من الكور بمعنى الزيادة، ومنه: ((**نعوذ بالله من الحور** -أي: النقص- **بعد الكور**))[1] أي: الزيادة، فإن ما ينقص من أحدهما يزيد في الآخر، ومما يشهد للوجه الثاني قول ذي الرمة في وصف السَّراب:

تَلوي الثَّنَايَا بِأَحْقَيْهَا حَوَاشِيَه لَيَّ المُلاَءِ بأبوابِ التَّفَارِيجِ

الثنايا: طرف الجبل، والأحقى: الأُزر، والضمير للسَّراب، والمُلاَء: جمع ملاءة وهي الشوذر، والتفاريج: جمع تفراج، وهو الباب الصغير.

وبدائع الصنع فيه قد ذكر في إيلاج كل في الآخر، وكذا تسخير الشمس والقمر باعتبار الانتفاع بهما باعتبارات شتى كالإضاءة وإصلاح النبات والثمار، وضبط معاقد الحساب وغيرها.

والأجل [٧٦٢/أ] المسمى: نهاية دور كُلٍّ وانقطاع حركته في يوم القيامة، أو منازل لا يتجاوزها ولا يتأخر عنها، وفعل وجه مناسبة الوصفين أن هذه الصنائع لا تصدر إلا عن كمال القدرة، ومن كان كذلك فهو الغالب الذي لا يغلب، وهو الغفار حيث يمن على العباد بأن لا يجعل آثامهم سببًا لعدم إفاضة النعمة عليهم، مع أن الحال يقتضي تعجيل العقوبة.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا خرج مسافرا (٣٤٣٩)، والنسائي في كتاب الاستعاذة، الاستعاذة من الحور بعد الكور (٥٤٩٨)، وابن ماجه في كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا سافر (٣٨٨٨)، من حديث عبد الله بن سرجس ﷺ، في دعاء النبي ﷺ في السفر، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح"، وصححه ابن خزيمة (٢٥٣٣).

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾

دليل آخر على تنزيهه باعتبار ثبوت ألوهيته بإيجاد نوع الإنسان؛ لاشتماله على عجائب صنعه فيه، فإن إيجاد آدم من غير تقدم أب وأم، ثم خلق حواء منه، أعني من قصيراه وهي: آخر ضلوعه، مع أنه ما جرت العادة بإحداث الأنثى من الذكر، ثم إحداث خلائق منهما لا تعد ولا تحصى.

و﴿ثُمَّ﴾ لا يجوز أن يكون عطفًا على ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وإلا يكون خلق الأولاد قبل خلق الأبوين. وإن قيل: أخرج من ظهره ذريته، ثم خلق حواء؛ لأن المراد غير ذلك الخلق، فيكون العطف على محذوف، مثل خلقها، أي: خلق تلك، ثم خلق منها زوجها، والمحذوف صفة النفس، أو يكون عطفًا على واحدة، أي: من نفس وحدت، ثم شفعها بجعل زوجها منها، وإن عطف على ﴿خَلَقَكُمْ﴾ فيكون ﴿ثُمَّ﴾ لتفاوت ما بين الاثنين، فإن الأولى عادة مستمرة دون الثانية، وهي خلق حواء، لا للتراخي.

﴿وَأَنزَلَ﴾ دلالة أخرى، والمعنى: قضى لكم فإن ما يقضي الله من أفعاله يوصف بالنزول من السماء باعتبار أنه كتب في اللوح، أو أن الله علَّق إنزال الأنعام بأسباب سماوية، كالأمطار وغيرها، باعتبار ارتقائها لا يكون إلا بالنبات الحاصل بها، وقيل: عبَّر عن الخلق بالإنزال لما فيه من معنى الإعلاء، يقال: رفعت القصة إلى الأمير وإن كان في سرب والتخصيص[1] لكثرة المنافع لا سيما اللحم واللبن، والثمانية من الذكر والأنثى، هي: الإبل والبقر والضأن والمعز.

وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾ متناول للأنعام، وضمير العقلاء للتغليب، وهو بيان لكيفية خلق الإنسان وغيره، والإشارة إلى غرائب الصنائع، والمراد بالخلق أنه يصير حيوانًا سويًّا،

---

(١) في جميع النسخ عدا (ح): (وتخصيص)، والتصويب من (ح).

والأطوار التي تعتريه من النطفة والمضغة والعلقة وكسوة العظام اللحم، كلُّ نوعٍ خَلْق، والظلمات الثلاث: البطن والرحم والمشيمة، أو الصُّلب والرحم والبطن، وقيل: صُلْب آدم، وذلك إشارة إلى المتصف بجميع الصفات السابقة، فإنه المستحق للعبادة.

وفي ذكر الرب إيماء إلى الاستحقاق بالنظر إلى تربية آبائهم، والوصف بالملك والتوحيد لدفع المشاركة المانع بأن يعدل بمن عرفه أن يعبد غيره.

﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾

وجه المعنى أن لا يريد جلب منفعة ولا دفع مضرة، كما خلقكم لذلك، ومع ذلك لا يرضى بالكفر.

واستدلت المعتزلة به على أن الكفر ليس بإرادته تعالى وقضائه؛ لأنه لزم الرضا بالقضاء.

والجواب: أن المراد بالعباد المؤمنون، ولا إشكال. وأيضًا نقول: الكفر بإرادته ولا يرضاه؛ لأن الرضا هو: المدح عليه والثناء بفعله، كما قال سبحانه: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: ١٨]، أن يمدحهم ويثني عليهم، أو الرضا: ترك اللوم والاعتراض، وهو غير الإرادة لقول ابن دريد

أصبت قسرًا وعلى القسر رضا من كان ذا سخط على صرف القضاء

وتنوين الرضا مع القسر يدل على أنه غير الإرادة، وإنما يرضى الشكر للعبد؛ لأنه سبب، فلا حاجة، فيثيبه الجنة عليه(١).

---

(١) قال البغوي: "ومعنى الآية: لا يرضى لعباده أن يكفروا به، يروى ذلك عن قتادة، وهو قول السلف، قالوا: كفر الكافر غير مرضي لله ﷻ وإن كان بإرادته". معالم التنزيل (١٠٩/٧). وقال ابن جزي: "تأوَّل الأشعرية هذه الآية على وجهين: أحدهما: أنَّ الرضا بمعنى الإرادة، ويعني بعباده: من قضى الله له بالإيمان والوفاة عليه، فهو كقوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]. والآخر: أن الرضا غير الإرادة، والعباد على هذا على العموم، أي: لا يرضى الكفر لأحد من =

وقرئ بإشباع ضمة الهاء [1]، حيث صارت موصولة بمتحرك، فحذف الألف. وقرئ بالإسكان[2]، وهو لغة فيها. وقرئ بضم الهاء مختلسة[3].

وقال الواحدي: من القراء من أشبع الهاء حتى ألحق بها واوًا لأن ما قبل الهاء متحرك، فصار كضربه وله، وهو مشبع بالاتفاق.

والوِزْر: الذنب، أي: لا يُؤاخَذ أحد بذنب آخر، فلا دليل فيه عليه على المعاصي ليست بإرادة الله؛ لأن فعل الله لا يوصف بالذنب؛ لأن ذلك اعتبار يلحقه بالنسبة إلى العبد.

ثم هددهم بأنه إذا كان الرجوع إلى الله بالبعث فيجازي كل بعد المحاسبة، لا سيما وهو مطلع على ما في الضمائر الذي هو أخفى الأشياء، فكيف بغيره؟!

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾

﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ قيل: معينون: كعتبة بن ربيعة، أو الكافر الذي سبق ذكره أن المراد المعهود، والضر شامل لمكروه، يلحقه نفسه أو ماله أو أهله، وحينئذٍ يدعو الله لكشف الضر، راجعًا إليه وحده لإزالة ذلك الضر، وله نِدٌّ من غيره[1].

= البشر، وإن كان قد أراد أن يقع من بعضهم فهو لم يرضه دينًا ولا شرعًا، وأراده وقوعًا ووجودًا، وأما المعتزلة؛ فإن الرضا عندهم بمعنى الإرادة، و(العباد): على العموم جريًا على قاعدتهم في القدر وأفعال العباد". التسهيل لعلوم التنزيل (٣/١٩٢).

(١) هي قراءة ابن كثير وابن عامر والكسائي وخلف وإسماعيل عن نافع وأبي حمدون وأبي عبد الرحمن ابن اليزيدي عن اليزيدي والبرجمي عن أبي بكر. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٨٣).

(٢) هي قراءة أبي عمرو في رواية الدوري وأبي شعيب السوسي وأوقية عن اليزيدي وحمزة في رواية العجلي. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٨٣).

(٣) هي قراءة أبي جعفر، ونافع برواية ورش وقالون، وأبي عمرو برواية شجاع وأبي أيوب وصاحب السجادة عن اليزيدي، وعاصم وحمزة ويعقوب. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٨٣).

ومعنى ﴿خَوَّلَهُۥ﴾: أعطاه [٧٦٢/ب] قال:

أَعطَى فلم يَبْخَلْ ولم يُبَخَّلِ كُومَ الذُّرَى مِن خِوَلِ المُخَوَّلِ

قيل: أصله الإرعاء، أو يعهده من قولهم: هو خائل، إذا كان قد يعهد له حسن القيام، يقال: هو خائل مال وخال مال، قال: إذا كان له حسن القيام به، أو من خال إذا اختال وافتخر، وفي معناه قولهم:

إنَّ الغنيَّ طويلُ الذيلِ [يناسب][٢]

ومنه قول الراوي: كان النبي عليه السلام يتخوّل أصحابه بالموعظة [٣]، أو من خال أي: افتخر.

وبعد كشف الضر وإعطاء النعمة نسي الله، ويكون ﴿مَا﴾ بمعنى: من مثل ما أعبد، أو الضر، أو الدعاء وحمل الترك لأنه كان حقيقة النسيان لما ذم عليه، أو نسي أن لا كاشف غير الله، فاتخذ الشركاء.

وقرئ بفتح الياء وضمه[٤]، وهو أبلغ، حيث لا يقتصر على ضلاله، بل يدعو غيره إليه، واللام للعاقبة، قيل: ليكون لهم عدوًا.

=

(١) في (ح): (ولا يدعو غيره) بدلًا من (وله ند من غيره).

(٢) هكذا في جميع النسخ، ولعله من تحريف النساخ، فشطر البيت هو:

إنَّ الغنيَّ طويلُ الذيلِ مَيَّاسُ

(٣) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا (٦٨)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين، باب الاقتصاد في الموعظة (٢٨٢١)، عن عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا).

(٤) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: (ليَضلّ) بفتح الياء، وقرأ الباقون بضمها. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٥١).

و﴿تَمَتَّعْ﴾ أمر تهديد، ناسب تمتع[1]، وفي إضافة الكفر إليه إشعار بأنه مجرد تشهي لا مستند له، وفيه إقناطه من التمتع في الآخرة، وإذ قد أبيت قبول ما أمرت به، فمن حقك أن تؤمر بقوله مبالغة في خذلانه، حيث تؤمر بعكس ما أمر به[2].

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾

(أم) متصلة على تقدير: الكافر خير أَمَّن هو قانت؟ وخير منه محذوف لدلالة الكلام عليه، أي: هو كغيره.

ومعنى ﴿قَٰنِتٌ﴾: قائم بوظائف الطاعات ساعات الليل.

ويجوز أن تكون منقطعة بمعنى: بل أَمَّن هو قانت كمن هو ضده؟

وقرئ بتخفيف الميم[3]، فيكون مجرد الاستفهام، أي: أَمَّن هو قانت لله كمن جعل لله أندادًا؟

ويقرأ: ﴿سَاجِدٌ وَّقَائِمٌ﴾[4] على أنه خبر بعده خبر، والواو لتغاير الصفتين، وعلى المشهور حالان من ضمير ﴿قَٰنِتٌ﴾.

و﴿هَلْ﴾ استفهام إنكار أي: لا يستوي الفريقان باعتبار القوة العلمية بعد نفيها باعتبار القوة العملية على آكد وجه؛ ليظهر به مزية العلم. وقيل: تقرير للأول على طريق

---

(١) في (ج): (تمتع)، وفي بقية النسخ غير واضحة.

(٢) قال الزمخشري: "وقوله: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾: من باب الخذلان والتخلية، كأنه قيل له: إذ قد أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة، فمن حقك ألا تؤمر به بعد ذلك، وتؤمر بتركه ، مبالغة في خذلانه وتخليته وشأنه؛ لأنه لا مبالغة في الخذلان؛ لأنّ أشدّ من أن يبعث على عكس ما أمر به " الكشاف (١١٨/٤).

(٣) هي قراءة ابن كثير وحمزة ونافع. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٨٤)، النشر (٣٦٢/٢).

(٤) عن الضحاك. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٣).

التشبيه، أي: لا كما لا يستوي العالمون والجاهلون فكذا العابدون والعاصون، بل وقيل: المراد بالعالـمِين: العاملين، فكان من لا يعمل لا يعلم، أو المؤمنون والكافرون.

وفيه تنبيه على أن العمل إنما يُنتفع به إذا واظب الإنسان عليه. وفي إضافة الرحمة إلى نفسه دون الحذر إشعار بغلبة جانب الرحمة.

والحمل على الأعم أولى من أنه نزل في عثمان كان يحيي الليل في ركعة، أو في عمار وأبي حذيفة المخزومي؛ لأنه أشمل.

وتخصيص أولي الألباب لأنهم المعتبرون بأمثال هذه الآيات.

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾

الاتقاء هنا فعل الواجب وترك المنهي، وفيه دليل على أن الإيمان يبقى مع المعصية.

و﴿ أَحْسَنُوا۟ ﴾ أي: أطاعوا.

و﴿ حَسَنَةٌ ﴾ تحمل تقديرين:

أحدهما: أن لهم في الآخرة، لأنهم أحسنوا في هذه الدنيا.

والثاني: أن لهم حسنة في هذه الدنيا.

والأولى: دخول الجنة، والثاني: الصحة والعافية، والأول لا سيما للنظر إلى تنكير التعظيم، فإن حسنة الدنيا بالنسبة إلى الآخرة خسيسة. وأيضًا قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ [غافر: ١٧] فثواب المؤمن من التوحيد والأعمال الصالحة يناسب أن يكون فيه.

و ﴿ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ﴾ متعلق بـ ﴿ أَحْسَنُوا۟ ﴾ تعلق المعمول بالعامل، وإن علق بـ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ فهو بيان لمكانها لا صفة لتقدمها.

وفائدة بيان سعة أرض الله إزاحة عذر من اعتل بعدم الممكن من توفر الإحسان في أرضه، فيتحول إلى غيره حتى لا يقول: كنا مستضعفين في الأرض. والمقصود: الترغيب في

الهجرة من مكة إلى المدينة، وعد على مشاق الطاعات والصبر على مهاجرة الأوطان بأجر لا يصل إليه حِسَاب الحُسَّاب.

وفي الخبر: ((**تنصب الموزاين يوم القيامة لأهل الصلوات والصدقة والحج، فيوفَّون بها أجورهم، ولا ينصب لأهل البلاء، بل يصب عليهم الأجر صبًّا، حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض؛ مما يذهب به أهل البلاء من الفضل**))[1].

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾

أي: أمرت بإخلاص الدين؛ ﴿لِأَنْ أَكُونَ﴾ مقدم المؤمنين في الدارين، أي: المخلص له السبق في الدين. وعطف ﴿أُمِرْتُ﴾ ليس على مثله وهو أمرت لأن الأول للتكليف بالإخلاص، والثاني لنيل فضيلة السبق، فهما لشيئين مختلفين.

روي أن قريشًا قالوا: يا محمد، ألا تنظر إلى ملة أبيك عبد الله وجدك وسادات قومك؟ كانوا يعبدون اللات والعزى، فأنزل الله. ﴿قُلْ﴾: أمر الله بالعبادة مقيدة بقيد الإخلاص؛ ليكون كالترغيب لغير النبي ﷺ.

وقيد ﴿أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لأنه أول من أسلم وجهه لله من قريش، وخالف دين آبائه، وحطم الأصنام.

واللام قيل: زائدة كما في: أمرت لأن أفعل، فيكون أمرًا بالتقدم في الإخلاص، والبدء بنفسه في الدعاء إليه بعد الأمر به، ولا تزاد الا مع أن خاصة دون الاسم الصريح.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٨٢/١٢) من حديث ابن عباس بنحوه، قال الهيثمي في المجمع (٣٤/٣): "فيه مجاعة بن الزبير ، وثقه أحمد وضعفه الدارقطني ". وقال العراقي في تخريج الإحياء (١٦١/٤): "أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من رواية بكر بن خنيس ، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس... وبكر بن خنيس والرقاشي ضعيفان، ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب... وأدخل بين بكر وبين الرقاشي ضرار بن عمرو وهو أيضا ضعيف".

ودليل زيادتها مجيئه مجردًا عنها في ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢، النمل: ٩١] ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤] [٧٦٣/أ]، ولا تكرار ﴿مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ و﴿مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤] لأن الأول إخبار عن كونه مأمورًا بإحداث العبادة والإخلاص، والثاني إخبار بأنه يخص الله بعبادته مخلصًا له دينه. وبهذه الدلالة قدم المعبود في الثاني وأخره في الأول، فالكلام أولًا في نفس الفعل والجادة، والثاني فيمن يقع له وللإشعار بأنه ليس كالملوك الذين يأمرون الناس بأشياء ولا يفعلونها. وقدم عمل القلب الذي هو الإخلاص على عمل الجوارح لأنه الأصل. ومن هنا يعلم أنه لا تكرار في ﴿أُمِرْتُ﴾ لتغايره المأمور به.

﴿قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥)﴾

هذا بيان لمقتضى الإسلام؛ لأن الخوف إنما هو ترك الإخلاص وموافقة الكفرة في الشرك، وهذا مما أريد به زجر الغير على وجه المبالغة، فإنه مع جلالة قدره إذا كان يخاف من فعل المعاصي، فغيره أولى. والآية لما دلت على أن المرتب على المعصية ليس حصول العقاب بل الخوف، صح قولنا: إن الله قد يعفو عن الكبيرة، ويدل على أن الأمر للوجوب، وإلا لما ترتب خوف العذاب على قوله: ﴿أُمِرْتُ﴾؛ لأن معنى هذا العصيان ترك الأمر السابق، وهذا ليس بتكرار؛ لأن قوله تعالى: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ أمر بالعبادة، وهذا أمر بأن لا يعبد غير الله، أو أنه أمر عليه السلام بأن يخبر عن كونه مأمورًا بالعبادة والإخلاص، خائفًا عن العقاب من العصيان؛ ليكون أبلغ في قطع أطماعهم عن موافقتهم؛ ولذلك رتب عليه أمر التهديد بقوله: ﴿فَاعْبُدُوا﴾، والمراد بـ﴿الْخَاسِرِينَ﴾ الكاملون في الخسران، حيث خسروا بضلال وإضلال أهلهم، فقد اجتمع عليهم أنواع الخسران. وقيل: وخسروا أهليهم لأنهم إن دخلوا معهم النار فهو محض الخسران، وإن ذهبوا إلى الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابًا لا رجوع إليهم؛ ولذلك بالغ في ذكر خسرانهم، بـ﴿أَلَا﴾ المنبهة، والاستئناف، وتوسط ضمير الفصل المشعر بالحصر، والوصف بالمبين، والجملة الاسمية الدالة على الثبوت، وهذا لأنه جواب الكفرة حيث قالوا: خسرت دين آبائك، ووجه ظهور الخسران أن الحياة والعقل والتمكن من

تحصيل الحياة الطيبة في الآخرة بسبب حصول الاعتقادات الحقة والأعمال الصالحة، فإذا ضيعها الإنسان فلا ربح، بل هو محض الخسران، كيف ولم يكتف بترك تحصيل المنافع، بل اكتسب من المضار ما لا يعد ولا يحصى.

﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾

المراد: إحاطة النار بهم، وتسمية ما تحتهم ظلة؛ إما لأنها ظلة غيرهم، فإن النار دركات، أو على طريقة ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍ﴾ [يونس: ٢٧]، أو للمشابهة في الحرارة، وعن الحسن: أنهم بين طبقتين من النار، مثل: ﴿يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥]، و﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ [الأعراف: ٤١]، وذلك إشارة إلى ما وصف من العذاب، والذي يخوف خبره، والمعنى: أن العذاب المعد للكفار يخوف به المؤمنون؛ لما سبق أن العباد للمؤمنين.

ويقرأ: ﴿يَا عِبَادِي﴾(١).

ومعنى ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ على هذا: أطيعون، وإن حمل على الأعم فالمعنى: وحدوني وأطيعوني، وعلى الأول تحمل إرادة دوام التوحيد.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾

فَعَلُوت من الطغيان، كالملكوت، وفيه قلب اللام عن العين، وفيه مبالغة للتسمية بالمصدر، وفي نفس النبأ مبالغة في ملكوت ورحموت للملك المبسوط والرحمة الواسعة، والمراد الشيطان، أو الأوثان وهم إن لم يكونوا عبدوا الشيطان لكن الشيطان هو الحامل، والصنم وإن لم يكن له فعل لكن الوصف باعتبار أنه السبب. وقيل: الكهنة وكل ما يعبد منه من دون الله.

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤/١٢٢).

و﴿أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ بدل اشتمال، والإنابة إلى الله: الإقبال عليه بالكلية، وترك [1] عبادة الصنم.

قيل: نزل في موحدي الجاهلية: زيد بن عمرو وأبي ذر الغفاري وسلمان، كانوا يقولون: لا إله إلا الله.

و﴿ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾ وإن فسرت بالبشارة عند الموت والوضع في القبر والخروج ومواقف القيامة، وعند مصير كل فريق إلى محل بالروح والراحة وزوال المكروهات ونيل عظائم السعادات على ألسنة الملائكة، لكن التفسير بالأعم أولى، ولا يخفى أن المراد بها الإخبار بنوع آخر سوى ما علموه في الدنيا؛ لأن البشارة الخبر الأول لأن السرور يحصل به ووضع وهو [2] العباد موضع ضمير الذين اجتنبوا للإشعار بمبدأ اجتنابهم، أي: الذين اجتنبوا موصوفون بأنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

عن ابن عباس أن أبا بكر رضي الله عنه أمر بالنبي ﷺ وصدَّقه، فجاء عثمان وعبد الرحمن وطلحة والزبير وسعد وسعيد، فسألوه فأخبرهم بإيمانه، فآمنوا، فنزلت. [٧٦٣/ب]

والحمل على العموم أولى، وما قيل أحسن في العقل ليس بقوي؛ لأنه قد يكون تعبُّديًا، فلا يهتدي العقل إلى أحسنيته، والأحسن شامل للإسلام من سائر الملل، والعفو والإعراض من القصاص في القرآن والمحكم دون المتشابه، وأن يسمع المحاسن والمساوئ، فيتحدث بأحسن كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، أو القرآن دون جميع ما يسمع، أو الطاعة والعزيمة دون الرخصة.

---

(١) في جميع النسخ عدا (ح): (وتركوا)، وما أثبته من (ح)، ولعله الأنسب للسياق.

(٢) كذا في جميع النسخ، والظاهر أن فيه تحريفًا أو سقطًا.

وفيه دليل على النظر والاستدلال؛ لأنه إذا كان الفلاح والهداية متعلقان [1] باتباع الأحسن، والتمييز لا يحصل بالسماع؛ لأن الكل يشترك فيه السماع، فلا يعلم الأحسن إلا بالحجة، فيأخذ أقواها دليلًا، ولا يكون مرتبته كما قال:

ولا تَكن مِثلَ عَيرٍ قِيدَ فَانقَادا

والحاصل إن كان ذلك الاتباع إنما هو باختيار الاعتقادات، وجميع العبادات والمعاملات، وسائر الشرعيات، والموصوفون بذلك هم الذين هداهم الله لدينه، وأولئك أرباب العقول السليمة الخالصة عن منازعة الوهم والعادة، وفيه إشعار بأن السعادة تحصل بفعل وقبول النفس لها.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

لعل وجه الربط التحذير عن الاعتماد على الانتماء إلى الآباء والمتبوعين من غير اكتساب الخيرات، كاتباع الأحسن؛ ولهذا استدل بنفي الشفاعة لأنه يكون إنقاذًا لمن حق عليه كلمة العذاب. وإن أجيب بمنع الحقية بدليل أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. نعم، فيه إثبات الهدى والضلال؛ لأنه إذا حقت عليه كلمة العذاب امتنع منه الإيمان والطاعة، وإلا لزم انقلاب علم الله جهلًا، والجملة الشرطية معطوفة على محذوف دل عليه السياق، أي: أأنت مالك أمرهم؟ فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه من النار؟ وترك اجتهاد النبي ﷺ ومبالغته في دعائهم إلى الإسلام منزلة إنقاذه من النار، تنزيلًا للسبب منزلة المسبب، وتكرار الهمزة في الجزاء لتأكيد الإنكار والاستبعاد، ووضع ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ موضع الضمير؛ ليكون أبلغ في الاستبعاد. وأيضًا ليدل على أن المحكوم عليه بالعذاب كالواقع فيه؛ لامتناع الخلف في خبر الله سبحانه.

(١) كذا في جميع النسخ، والوجه: (متعلقين)؛ لأنه خبر كان.

وإن جعل ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ جملة مستأنفة ليدل على الاستبعاد، فالجزاء المحذوف يدل عليه، و ﴿لَٰكِنِ﴾ استدراك قابل به ﴿ظُلَلٌ﴾، أي: لهم علالي، وفوقها درجات، بعضها أعلى من بعض، كما أن لأولئك دركات، فيكونوا في أيها شاؤوا، و﴿تَحْتِهَا﴾: تحت منازلها أو منابعها من تحتها.

وفائدة قوله تعالى: ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ بيان أن الفوقاني في القوة كالتحتاني، فإن الغالب أن الفوقاني يكون أضعف، فقال: هو مساوٍ للتحتاني في القوة وشبهت بالعلوم المتعلقة بعضها ببعض.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لتضمنه الوعد، وفي تأكيد الوعد بعدم الخلف فيه، وفي كثير من آيات الوعد دون الوعيد، دليل سبق الرحمة، وأكد ذلك بأن الله قد وعد، والخلف في خبره محال، ولا عبرة بمعارضة المعتزلة بقوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٩] فإنه عام.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾

وجه الربط أن الآية الأولى مرغبة في أحوال الآخرة، ذكر ما ينفر عن الدنيا، فإن أنواع النبات المختلفة الألوان المزينة للأرض مآلها إلى الاصفرار واليبس والانعدام، وكذلك مآل حال الإنسان بعد نضارة الشباب إلى الموت والفناء.

ومعنى ﴿سَلَكَهُۥ﴾: أدخله، وينابيع الأرض يدخل فيها، هي العيون والمجاري الكائنة فيها كالعروق في الأجساد، أو القنوات التي في الأرض؛ لأن الينابيع تقال على المنابع والنوابع، ونصبه إمَّا على المصدر، أو الحال، أو على الظرف إذا حمل على الموضع الذي يخرج منه الماء، وبنزع الخافض إذ التقدير: في ينابيع.

ومختلف الألوان وإن كان الظاهر اختلاف كيفياته من خضرة وحمرة، لكن حمل على الأصناف كالبر والشعير، والزرع النبت الذي لاساق له.

ومعنى ﴿يَهِيجُ﴾: يتم جفافه، فإنه حينئذ يثور عنه منبته ويصفر بسبب يبسه، ويكون مآله إلى أن يكون حطامًا، أي: فتاتًا مكسرًا وهالكًا. وتقييد التذكير وتخصيصه بأولي الألباب؛ لأن بالعقل يعلم أنه لا بد من صانع حكيم قادر إلى آخر صفاته التي يتوقف عليها ذلك.

و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى إنزال الماء وإخراج الزرع، ويحتمل أن يراد المذكور الأعم، ويجوز أن يكون مثلًا للأشياء.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢﴾ [٧٦٤/أ]

لما ذكر ما ينفر عن الدنيا ويرغب في الآخرة ذكر ما هو الأساس والأصل في جميع صالحات الأعمال، والنظر إلى عموم لفظه، أولى من التخصيص بالنزول في: حمزة، وعلي، وأبي لهب وولده، أو عمار، أو عثمان، لاستلزم الأول الثاني، دون العكس، واختلف في أن الشرح قبل الإسلام أو بعده(١).

ولقائل أن يقول: إن فسر بالاستعداد لقبول الخير فلا مانع من كونه قبله، وإن أريد ترتب الأثر عليه فلا يخفى أنه بعده، والسبب في كون بعض القلوب منشرحًا وبعضها قاسيًا أن الله سبحانه خلق الإنسان مختلف الطباع بالاستقراء، فمنهم من تكون نفسه نورانية مائلة إلى الإلهيات والرغبة في الاتصال بالروحانيات، فذلك الاستعداد الشديد في فطرة شرح الصدر، ومثله يكفيه أدنى تنبيه كالكبريت يتقد بأقل نار، ومنها ما تكون ظلمانية كَدِرَة، قليلة التأثير عن الأحوال المناسبة للإلهيات، وكلما ذكر له البراهين اليقينية ازداد قسوة، وبهذا

(١) قال الكرماني: "وفي شرح الصدر قولان: أحدهما: أن الله يبتدئ قومًا بأن يشرح صدورهم، وكذلك يضيِّق صدور قوم ابتداء، فعلى هذا شرح الصدر قبل الإسلام، وأنكر هذا بعضهم. وقالوا: الشرح بعد الإسلام، ومعنى شَرَح صدره: وسَّع صدره للإسلام فاهتدى، وملأ قلبه بالنور". رسالة اللباب ١٤٤/١ [تحقيق: إبراهيم الحكمي].

يعلم الفرق بين قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وهذه الآية، حيث قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، والذي يدل على التفرقة أنه لما ذكر النبي عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الآية [المؤمنون: ١٢] حضر هناك عمر وغيره، وقالا: فتبارك الله أحسن الخالقين، فقال عليه السلام: ((**هكذا نزل**))، فازداد عمر إيمانًا، وذاك الإنسان كفرًا.

وإلى القسم الأول أشار النبي ﷺ: ((**الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام**))(١).

وخبر ﴿أَفَمَن﴾ محذوف، والتقدير: فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته، وترك الجواب لدلالة ﴿فَوَيْلٌ﴾ عليه، وفائدة شرح الصدر قيل: الخير ينشر (٢)، وتخصيص الصدر لأنه محل القلب الذي هو المنبع للروح المتعلق بالنفس، والنور المذكور: المعرفة والاهتداء إلى الحق. وعن النبي ﷺ: ((**إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح**)) ، فقيل: فما علامة ذلك؟ قال: ((**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل نزوله**))(٣). وقيل: النور: القرآن.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجندة (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كذا في (ب)، وفي (ج): الخير يبشر)، وفي باقي النسخ: الكلمة الثانية غير منقوطة، و لم يتضح لي المقصود.

(٣) أخرجه ابن جرير (٥٤٣/٩)، والحاكم (٧٨٦٣)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وفيه عدي بن الفضل؛ قال الذهبي في التلخيص: "عدي بن الفضل ساقط". وقال الدارقطني في العلل (١٨٩/٥) رقم (٨١٢): "الصواب عن عمرو بن مرة، عن أبي جعفر عبد الله بن المسور مرسلا، عن النبي ﷺ. كذلك قاله الثوري. وعبد الله بن المسور بن عون بن جعفر بن أبي طالب هذا متروك". وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة (٩٦٥).

وجعل ﴿مِّن﴾ صلة القاسية أبلغ من جعل [عن] [1] صلته؛ لأن الأول أشد تأبِّيًا من قبوله بخلاف القاسي عنه لسبب آخر، أي: القساوة من أجل الذكر، يقال: سقاه من العيمة[2] من أجل عطشه، ولو قال: عن العيمة كان المعنى أبعده عن العطش، ولا يعلم أنه السبب. وقيل: القاسي الخالي عن ذكر الله. والذكر قيل: القرآن، وقيل: القاسي الناسي الذي لا ينجع فيه الإيمان ولا الوعظ. وكون الضلال مبينًا لأنه يظهر للمتأمل بأدنى فكر.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾

روي أنهم قالوا: حدِّثْنا يا رسول الله، أي: ائت بحديث لم نسمعه[3]، فنزل.

والحديث: هو المشتمل على خبر ينبئ عن حال متقدمة، والوصف بالحديث لكونه حديث النزول بالنسبة إلى ما تقدمه من الكتب، فلا دلالة فيه على حدوث القرآن الثابت بطلانه بالبرهان[4].

وفي تقديم ﴿ٱللَّهُ﴾ وترتب ﴿نَزَّلَ﴾ عليه مبالغة لبيان كون القرآن أحسن الحديث؛ لأن اعتبار اللفظ أفصح الكلام وأبلغه، واشتماله على دقائق ولطائف بكلمات وجيزة مشتملة على معان غزيرة، ومع كونه مخالفًا للخطب والشعر وغيرهما يستلذه كل من سمعه، ولا يطلع على ألفاظه وخصائص تراكيبه إلا المطلع على علمي المعاني والبيان، وأما من حيث المعنى فاشتماله على علوم الكتب المتقدمة عليه وغيرها؛ من: البحث في ذات الله، وصفاته، وأسمائه، وتنزيهه، وعجائب صنعه في عالم الأفلاك والعناصر إجمالًا وتفصيلًا،

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ن).
(٢) العيمة: شدة العطش. انظر: لسان العرب (١٢/٤٣٢).
(٣) الأصل: (نسمع)، وما أثبته في (ن).
(٤) يرد المؤلف هنا رحمه الله على المعتزلة في قولهم بخلق القرآن.

وأحوال الأنبياء والملائكة والكتب السابقة، وما لها من الآثار والفوائد، واشتماله على المغيبات من أحوال الماضين، وما يحدث في الآخرين كغلبة الروم وخلافة الخلفاء وغيرهما، والأحكام الدينية، وعلم مكارم الأخلاق، والمواعظ، والغير مالا يعد ولا يحصى، إذا اعتبر المنطوقات والمفهومات، ثم الوصف المتشابه باعتبار الصدق والبيان والتوافق في الحجج والبرهان وتأسيس الأحكام على أوضح البنيان، وفي الفصل [١] والوعظ ومنافع الدين والدنيا العامة العالم، أو مشابهته للكتب المتقدمة، والحمل على المتشابه الذي لا يعلم معناه بعيدٌ جدًّا، وكذلك في المتشابه من جهة الإعجاز وحسن النظم وصحة المعنى وعدم الاختلاف والتناقض؛ بكونه ﴿مَّثَانِىَ﴾ جمع مُثَنًّى أو مَثْنَى، إما لأنه ثنى قراءته في الصلاة، فلا يمل لحسن مسموعه، أو يثنى فئة أحوال الجنة والنار والقصص والأخبار، أو باعتبار تفاصيله، لأنك تقول: القرآن سور وآيات، كما تقول: بدن الإنسان [٧٦٤/ب] عروق وعظام وأعصاب، وإن جعل تمييزًا من ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ فهو مثل قولكم: رأيت رجلًا حسنًا شمائل، وقد سبق في الحج زيادة تقرير.

والوصف بأنه ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ﴾ الخائفين أي: تشمئز وتضطرب من الخوف؛ لما فيه من الوعيد. وتركيبه من القشع، وهو الأديم اليابس بزيادة الراء للإلحاق بالرباعي، مثل اقمطرّ، من القمط، وهو الشد.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ﴾ بآيات الوعد والرحمة والمغفرة العامة. وإطلاق الذِّكْر من غير ذكر الرحمة؛ للإشعار بأن شأنه الرحمة العامة، وأن رحمته سبقت غضبه. وذكر ﴿إِلَىٰ﴾ لتطمئن معنى الاطمئنان، والتقييد بالقلوب لأن الخشية من عوارضها، وأيضًا المراد التصديق بالذكر.

وذكر في "المفاتح" نقلًا عن "البسيط" للواحدي عن قتادة أنه قال: (القرآن دل على أن أولياء الله موصوفون بأنهم عند المكاشفات والمشاهدات تارة تقشر جلودهم، وأخرى تلين وقلوبهم إلى ذكر الله، وليس فيه أن عقولهم تزول وأعضاءهم تضعف)، ونقل عن "الإحياء"

---

(١) في (ح): (القصص) بدلًا من (الفصل).

عن الحجة أنه قال: نرى كثيرًا من الناس يظهر الوجد عليه عند سماع الأشعار دون سماع الآيات. قال صاحب "المفاتح": وأنا أقول: إني خلقت محرومًا عن هذا المعنى، فإني كلما تأملت في أسرار القرآن اقشعر جلدي، ووقف علي شَعري، وحصلت في قلبي دهشة وروعة، وكلما سمعت تلك الأشعار غلب علي الهزل، وأظن أن المنهج القويم وذكر عليه أدلة، والحجة ذكر عذر ذلك في "الإحياء"، وما قيل: إن ذلك في أصحاب رسول الله ﷺ فغير بعيد؛ لمشاهدتهم الوحي، وأنهم كانوا يخافون من إنكار عليهم لذنب لهم، ثم إذا تليت عليهم زال ذلك واطمأنت قلوبهم، غير أن النظر إلى عموم اللفظ.

و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الكتاب، وهو ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾، وهو الذي شرح صدره.

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ بأن جعل قلبه قاسيًا منافيًا لقبول الهداية، ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ إلى الإيمان والثواب، وقيل: إشارة إلى الاقشعرار واللين، والمراد باللين: الإسراع إلى الطاعة، والاقشعرار بضده فيه بعد. واستدلال المذهب على أنهما من عند الله ظاهر، ولا يخفى تعسفات المعتزلة من التخصيص بالفسقة ونحوه كما سبق في غيره.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٢٤﴾

تقديره: أهو كمن آمن أو في الراحة؟ فحذف الخبر كما في أمثاله إيجازًا للعلم به، وإنما يتقي به لأنه يكون مغلولًا، فلا يقدر أن يتقي بغيره، أو يسحب على وجهه، أو النار بيديه أو يمنع من صرف وجهه عنها. وقيل: هو عبارة عن عدم الاتقاء، لأن غير الوجه يجعل وقايته، فجعل الاتقاء بالوجه لبيانه عن العجز، وهو مثل:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أَنَّ سيوفَهُم بهنَّ فلولٌ مِن قراعِ الكتائبِ

وقيل: مَثَلٌ للمُصرِّ على الكفر، فـ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ من صلة ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾، ووضع الظالمين موضع ضميرهم لبيان الموجب لما يقال لهم، والتسجيل بكونهم ظالمين، و﴿ذُوقُواْ﴾ قول الخزنة(١) لهم، ﴿مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ أي: جزاءه، والواو قيل: للحال فيكون كل مقدرة.

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

[فيه تسلية ووعد بالنصر ووعيد للكفرة، والضمير لقريش، وإتيان العذاب من حيث لا يتوقع البشر كما ظهر من السحاب، أو بحيث لا يعرفون له مرادًا، أو بغتة أشد.

و﴿ٱلۡخِزۡيَ﴾: الهوان، والمعنى: أنهم يحسون به إحساس الذائق بالمطعوم، ثم إنه وإن نزل بهم العذاب لكن ما ادخر لهم في الآخرة أكبر وأعظم. و﴿لَوۡ كَانُواْ﴾ جوابه: لأطاعوا.

﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾](٢)

أي: كل مثل يحتاج المتأمل إلى النظر، وما قيل: إن المراد التخويف هنا لا يلائم ما بعده، ولعل لرجائهم أن يتفطنوا له. و ﴿قُرۡءَانًا﴾ حال من اسم الإشارة، والاعتماد على الصفة التي هي القرآن لأن الحال يفيد تأكيد الذي الحال، وسميت مؤكدة لذلك، ولا يفيد المعنى المقصود إلا بالصفة. وقيل: حال من القرآن، وقيل: مدح، ومن وَصْفه خلُوُّه عن العوج، أي: لا اختلال فيه بوجه ما، وهو أبلغ من المستقيم، وأخص بالمعاني؛ لأنه نكرة في سياق النفي فيعم نفي أنواع الاعوجاج.

---

(١) في الأصل: (الجرير)، وهو تحريف، والتصويب من (ح).

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ن).

فلو قال: (قرآنًا مستقيمًا) لم يتعد ذلك، ولو حصل فيه استقامة بوجهٍ ما صدق أنه مستقيم، وكونه أخص لأن مكسور العين لا يقال إلا في المعاني. وقيل: ليس فيه شك؛ بدليل قولهم:

أَتَاكَ يقينٌ غيرُ ذي عِوَجٍ مِنَ الإلهِ قولٌ غيرُ مكذوبِ[1]

وهو تخصيص ببعض مدلوله.

و﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ علة أخرى لضرب المثل.

وضرب المثل الثاني للمشرك والموحد، فمثل المشرك بحسب اعتقاده ألوهية آلهة متعددة أن يدعي كل معبود له عبوديته وينازع غيره، كمثل مملوك يتشارك فيه طائفة يتجاذبونه ويستخدمونه في مهماتهم المختلفة، فإنه يبقى متحيرًا، متوزع القلب والفكر، لا يدري أيهم يرضي بخدمته، وعلى أيهم يعتمد في حاجته، ومثل الموحد مثل من هو خالص لواحد، لا سبيل لغيره إليه.

و﴿رَّجُلًا﴾ بدل من ﴿مَثَلًا﴾.

لا يقال: هذا لا يصح في حق عبدة الأصنام، وأنها جمادات لا تنازع بينها؛ لأنهم زعموا أنها تماثيل الكواكب، ولها تأثيرات بزعمهم.

وقُدِّم ﴿فِيهِ﴾ على عامله وهو ﴿شُرَكَآءُ﴾ للعناية به.

والتشاكس: الاختلاس، وكذا التشاخص، وقرئ: ﴿سَلَمًا﴾ بفتحتين[1]، ويقرأ بفتحها وكسرها مع سكون العين[2]، وهي مصادر سلم وصف بها [٧٦٥/أ] للمبالغة، أو التقدير: ذا سلم.

---

(١) البيت كما في الكشاف وأنوار التنزيل:

وَقَد أَتَاكَ يقينٌ غيرُ ذي عِوَجٍ مِنَ الإلهِ وقولٌ غيرُ مكذوبِ

وتخصيص الرجل لأنه أقوى إدراكًا.

و﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ﴾ استفهام إنكار، دل عليه السياق، أي: يكون حالهما وصفتهما سواء، و﴿فِيهِ﴾ صلة شركاء، كما يقال: اشتركوا فيه. و ﴿مَثَلًا﴾ تمييز جاز مفردًا لإرادة الجنس، ويقرأ: ﴿مَثَلَيْنِ﴾(٣) نظرًا إلى اختلاف النوع، نحو: ﴿أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ [سبأ: ٣٥]، فإن صفة كل غير الآخر؛ لأن الضمير للمثلين، والتقدير: مثل رجل ومثل رجل.

والحمد فائدته تقرير أنه المستحق بالحقيقة؛ لأنه المنعم بالذات، والمالك بالإطلاق، ولعل الفائدة التنبيه على الحمد لنعمة ضرب المثل.

وعدم العلم الأكثر جعل مدلولًا للشرك، ويحتمل أن لاستحقاق الحمد على الوجه المذكور، أو هذه النعمة، أو لا يعلمون المثل المضروب.

ولا استدلال بضرب المثل على حدوث القرآن نظرًا إلى أن ما يؤتى به لم يكن موجودًا، ثم وجد لذلك الغرض؛ لأنه إن حمل على المعنى القائم بالذات فالحادث التعلق.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ٣١﴾

قيل: فائدته التحذير والحث على الطاعة، أو أنه لا يبالي بحسد الكفار وأذاهم؛ فإن الموت يعم الكل، وبعده يُجازى كلًا بفعله، أو القصد: أن لا يختلفوا في موته.

والاختصام: إظهار كل حجته على مطلبه، فنصر المؤمن على الكافر، والمظلوم على الظالم، والصادق على الكاذب، فغلب الرسول ﷺ بالحجة؛ لما ثبت أنه بلغ وكذبوا، أو يقول الضعفاء للسادات: أنتم أغويتمونا، ويقول السادات: بل الشياطين أغوتنا، وما روي

=

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: (سالِمًا)، وقرأ الباقون: (سَلَمًا) بغير ألف وفتح اللام. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٨٤).

(٢) قرأ سعيد بن جبير: (سِلْمًا) بكسر السين وسكون اللام، وقرأ الأعرج: (سَلْمًا) بفتح السين وسكون اللام. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٤).

(٣) عن ابن أبي عبلة. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٤).

أنه عليه السلام سئل فقال[1]، وقالت الصحابة: ما خصومتنا بيننا؟ فلما قتل عثمان قالوا: هذه خصومتنا[2]، لا ينافي الحمل على العموم، ولا ينافيه ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ﴾[ق: ٢٨] فلعلهما في قضية أخرى.

﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

استفهام تقريع، أي: لا أحد أظلم على نفسه منه.

وكذبه على الله: وصْفُه بغير صفاته، أو يقول عن الله ما لم يقله.

والصدق: القرآن، وإن حمل على الصادق فهو النبي عليه السلام، والأول يستلزمه أيضًا.

و﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ معناه أن يكذب من غير تأمُّل فيه ورويّة.

و﴿أَلَيْسَ﴾ للتقرير، أي: يكفي جهنم جزاء العمل. ولام ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يحتمل إرادة العهد، والمعهود: الذين كذبوا على الله وكذبوا بالصدق، والجنس ولا دلا[لة][3] فيه على تكفير المبتدعة فإنهم [لا][4] يكذبون بما علم صدقه؛ لأن المراد مفاجأة التكذيب بما علم مجيء الرسول عليه السلام، والصدق الثاني إذا حمل على الجنس عم جميع الرسل والمؤمنين، فيندرج.

(١) هكذا في جميع النسخ، وفي اللباب قال الكرماني: "وروى الرقاشي: أن النبي ﷺ قيل له: فِيمَ الخصومة؟ فقال: ((**في الدماء في الدنيا**))" رسالة اللباب ١٥٣/١ [تحقيق: إبراهيم الحكمي]، وقد أورد السيوطي بنحوه في الدر المنثور، وعزاه لأبي عبيد، وعبد بن حُميد عن الفضل بن عيسى.

(٢) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٢٠٢/٢٠)، وأورده السيوطي في الدر المنثور (٦٥٦/١٢)، وعزاه إلى: عبدالرزاق، وعبد بن حُميد، وابن جرير، وابن عساكر عن إبراهيم النخعي.

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في بقية النسخ عدا (أ).

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح).

والجائي قيل: جبريل، وقيل: النبي عليه السلام والمصدِّق، ويلزم أن يكون التقدير: والذي صَدَّق، وإضماره الموصول غير جائز، وما يقرأ بالتخفيف [1]، فمعناه أنه صَدَق مع من أخبره وأَدَّى إليه الوحي كما نزل، أو صار صادقًا بتصديق المعجز إياه، وكذا ما يقرأ: ﴿وَصُدِّقَ بِهِ﴾ على المجهول [2]، فإن حمل الذي صدق على النبي ﷺ، فجميع المتقين لإرادته وإرادة من تبعه، [نحو] [3]: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٩]، بعود ذكر موسى عليه السلام وحده، ولا إشكال فيما يقرأ: ﴿والذين جاؤوا﴾ [4]، فالمراد بما عند الله الجنة، فإن فيها ما تشتهي الأنفس، وهي جزاء من أحسن عمله لإحسانه أو توحيده، وتخصيص التكفير، أي: المغفرة بالأسوأ؛ للإشعار بأن غيره أولى وأنهم كانوا يستعظمون الذنوب، وأنهم مقصرون، وأن صغائر ذنوبهم أسوأ الذنوب، كما قال تعالى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. ويجوز أن يراد مطلق الزيادة مثل: الناقص والأشج أعدلا بني مروان، ويقرأ: ﴿أسواء﴾ جمع سوء [5]، وقيل: المكفر عنهم بعد الإسلام الكفر السابق، وإضافة الأسوأ ليست من إضافة أفعل إلى الجملة التي يفضل عليها، بل إضافة الشيء إلى ما هو بعضه، كما في: أعدلا بني مروان.

والجزاء بالأحسن هو أن الله سبحانه يعد لهم محاسن أعمالهم بأحسنها في زيادة الأجر وعظمته؛ لإخلاصهم فيها، وقيل: يجزي بالمحاسن لا بالمساوئ.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

---

(١) عن محمد بن حجار وعكرمة بن سليمان. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٤).

(٢) عن ابن يعمر. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٤).

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ن).

(٤) عن أبيّ وابن مسعود والأعمش. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٤).

(٥) عن ابن كثير. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٣٢)، شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٤).

الضمير لقريش، كانوا يخوّفون النبي ﷺ من آلهتهم، ويقولون: إنا نخاف عليك منها؛ فإنك تعيبهم. وقيل: خوف سادن العزى خالدًا لما أمر النبي عليه السلام بكسرها، فهشم أنفه[1].

قال: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ ﴾ في عصمة نبيه، وفيه تهكم بهم.

ودخول همزة [٧٦٥/ب] الاستفهام للإنكار على النفي لإفادة ثبوت الكفاية.

ويقرأ: ﴿ بكاف عبده ﴾، وهو النبي عليه السلام، أو الجنس. وما قرئ بالجمع[2] يؤيد ذلك.

وإسناد التخويف إلى النبي ﷺ لأنه الآمر به.

وإضلال الله من أراد ضلاله سواء كان من طريق الرشاد، أو الجنة، أو الخذلان، لا ينفعه هداية غير الله، وهو دليل ظاهر على أن الكل من عند الله. وحمل على ذلك المخوف من عند الله للسياق، وكذلك من أراد هدايته، لا يضر خذلان غير الله إياه.

وكونه عزيزًا ذكر للدليل على أنه لا راد لقضائه، وهو ينتقم من أعدائه.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

ولما سألهم النبي ﷺ قالوا: خلقها الله، وذلك لوضوح البرهان، فالتقريع على أن الله خالق العالم إن أراد أن يصيبني ببلاء أو مرض، هل الأصنام التي تدعونها تقدر على كشف ذلك الضر؟ أو أراد أن يعطيني صحة أو نعمة، هل لهن إمساك تلك الرحمة مني؟ فسألهم النبي ﷺ فسكتوا. وتقييد ذلك العرض بنفسه لأنهم خوفوه وحده على الوجه الأول وهو

---

(١) الأثر أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٢٠/٢١٠)، وابن أبي حاتم في تفسير القرآن (١٠/ ٣٢٥١) عن قتادة.

(٢) قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف: (بكافٍ عِبادَه) بالألف على الجمع، وقرأ الباقون: (عَبدَه) بغير ألف وفتح العين. ينظر: الميسوط في القراءات العشر (ص٣٨٤).

دليل على عدم اعتبار ذلك التخويف، فقل يا محمد: يكفيني الله في إعطاء الخير ودفع الضر؛ لما ثبت أنه القادر على ما يريده من الخير والشر. وتأنيث الأصنام على ما وصفوها باللات والعزى ومناة، ولفظ الذين لزعمهم أنها آلهة، وهو عنوان ضعفها، وليس للمتوكلين الاعتماد على غير الله بعد ظهور هذه الأدلة.

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

أي: على مكانكم أو ناحيتكم أو حالتكم التي أنتم عليها من العداوة. استعير اسم المكان للحال كما يستعار هنا حيث للزمان. وقيل: مصدر مكن مكانة، قاله على وجه التهديد، اعتقدتم أنكم موصوفون بنهاية القوة، فاجتهدوا في مكركم وكيدكم.

﴿إِنِّى عَٰمِلٌ ﴾ أي: على مكانتي، أي: أمر ديني حذف اختصارًا. ويقرأ: ﴿مَكَانَاتِكُمْ ﴾[1] ومبالغة في الوعيد، وفيه تنبيه على أن حال النبي ﷺ يتضاعف قوة ونصرًا على مر الأيام، ويناسب الوعيد حيث يعلم أنه متصور في الدنيا والعقبى، ويدل على الوعيد بخزي الأعداء فإنه دليل نصرته كما كان يوم بدر، ويستعقب عذاب النار الذي هو دائم لا انقطاع له، والحمل على النسخ بعيد لا ينافي قصد القتال.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾

فيه إزالة حزن النبي ﷺ على ترك الإيمان، والمعنى: أنزلنا الكتاب الكامل لينتفع به الناس جميعًا، وجعلنا مقرونًا بالحق، وهو المعجزة، أو الخبر عما هو حق وقوعه.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ للحق وتدبر الكتاب، فنفعه يعود إلى نفسه، ﴿وَمَن ضَلَّ ﴾ عنه فضرره يختص به. ونفي كونه وكيلًا أنه عليه السلام ليس مأمورًا بأن يجبلهم على الإيمان.

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (١٣٣/٤).

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

فسَّر النفس بجوهر روحاني مشرق، يحصل ضوؤه في جميع البدن ظاهره وباطنه لتعلقها به، فإذا مات الإنسان انقطع التعلق بالكلية، وإذا نام انقطع عن ظاهره لا غير. وهو يناسب ما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن في ابن آدم نفسًا وروحًا بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس هي التي بها العقل والتمييز، والروح التي بها النفس والحياة، فيتوفيان عند الموت، والنفس وحدها تتوفى عند النوم.

ومعنى التوفيان(١): أن يقطع تعلقها عن البدن، ويصرفها فيه، فالتقدير: يتوفى الأنفس التي لم تمت حين تنام تشبيهًا للنائم بالميت، فيمسك الأنفس التي قضى عليها بالموت الحقيقي، فلا يردها، ويرسل النائم إلى أجل مسمى، هو وقت موتها.

ويقرأ: ﴿ قُضِيَ ﴾ بالمجهول(٢).

فإن قيل: قد استعمل التوفية في الإماتة في قوله: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [السجدة: ١١]، وفي توفية النوم، فإن كان حقيقة في أحدهما مجازًا في الآخر لزم استعمال اللفظ فيهما، وهو قول مرجوح، وإن كان حقيقة فيهما فكذلك!

قلنا: هنا قسم آخر، وهو أن يكون كمشترك بينهما، ولا يلزم محذور.

و﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى المذكور، وهو التوفية المنقسمة إلى الإرسال والإمساك، وما قيل: إن التوفية الأولى إماتة، والثانية إنامة، نسبة الذهاب إلى أحد المرجوحين. وكونها آيات لدلالتها على كمال القدرة والحكمة في إراحة البدن، والنعمة في الإرسال.

---

(١) في (ح): (التوفي).

(٢) قرأ بذلك حمزة والكسائي وخلف. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٨٤).

والمراد في التفكر النظر في كيفية تعلقها بالبدن، وما عليها من الفوائد، وما يكسبها من السعادة والشقاوة. ووجه الحكمة في الإمساك والإرسال.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [٧٦٦/أ]

بل اتخذوا أصنامًا يعتقدون أنها تشفع لهم، وقيل: هي معادلة لهمزة الاستفهام، والتقدير: أَعَبَدُوا الأوثان لكونها تخلق الأشياء أم لأنها تشفع لهم؟ وأبعد من ذلك جعلها معادلة الألف في ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٣٦] وجه الربط أنهم أعرضوا عن إله موصوف بتلك القدرة، وعبدوا غيره، فكأن الكفار قالوا: نحن لا نتوقع الشفاعة إلا من علماء وزهاد، هذه تماثيلهم، وجوابهم أن يوقع الشفاعة إما من هذه الأصنام وهي جمادات، أو من أولئك العلماء والزهاد، وهو باطل؛ لأن يوم القيامة يوم لا يملك أحد شيئًا.

وقوله تعالى: ﴿ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ يدل على إرادة الأول؛ لأن هذا الوصف للصنم، فكأنه قال: لو فرض أن آلهتكم تكون هكذا فكيف تتوقعون شفاعتهم؟! ولا يستدل به على نفي الشفاعة؛ لأن المراد أنه لا يشفع أحد إلا باذن الله، فكون الشفاعة كلها لله لا يدل على أنها لا ينالها من أذن الله له. وفائدة كون الملك كله لله أنه لا يقدر أن يتصرف في ملكه أحد دون إذنه، وفي ذكر الرجوع تهديد لهم.

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

وذكر الله عندهم بكلمة التوحيد، أو التسمية وغيرها، سبب انقباضهم ونفارهم من امتلاء القلب غمًّا بحيث تنقبض أدمة الوجه، وقيل: معنى الاشمئزاز: الاستكبار، وعند ذكر الأوثان يستبشرون، وهو ضد الأول؛ لأنه انبساط الوجه من امتلاء القلب سرورًا. وقيل: كان ذلك عند قراءة سورة ﴿ وَٱلنَّجْمِ ﴾ كما سبق في النور، والعامل في ﴿ إِذَا ذُكِرَ ﴾ مقدر بأي أو وقت ذكر الذين من دونه فاجأوا الاستبشار.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

كأنه أمر النبي عليه السلام بأن يلتجئ إلى الله تعالى لما عجز من شدة شكيمتهم؛ لأنه العالم بالأشياء، سرها وعلانيتها، وما غاب عن العباد وما حضر عندهم، والقادر عليها، وهو يعلم أن نفرتهم عن التوحيد وفرحهم بالشرك أمر ظاهر الفساد، فأنت تحكم بيني وبينهم في ذلك.

روي أنه سئلت عائشة رضي الله عنها: بم كان النبي صلى الله عليه وسلم يفتتح صلاته بالليل؟ قالت: كان يقول: ((**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك لتهدي إلى صراط مستقيم**))(1).

وهو تهديد بلغ غاية الفظاعة، وهو مثل قوله سبحانه: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم ﴾ [السجدة: ١٧] في جانب الوعد.

عن سفيان الثوري أنه قرأها فقال: (ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء)، ومحمد بن المنكدر جزع عند الموت، وقال: (أخشى هذه الآية).

ثم بين سبحانه أن هؤلاء الكفار، ولو ملكوا كل ما في الأرض، وملكوا مثله معه، وجعلوا ذلك قربة من أنفسهم من ذلك العذاب، لم ينفعهم. والإطلاق يتناول غيرهم من الظلمة. وظهرت لهم أنواع من العقاب لم تكن في حسابهم، ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ ﴾ [المجادلة: ٦]، بل ظنوا أن لهم ثوابًا على حسابهم، وكيف ينفع عمل مع الشرك بالله؟! وظهرت لهم آثار تلك السيئات التي عملوها، وأحاط جزاء استهزائهم بهم من كل الجوانب.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧٠).

وعطف هذه بالفاء دون التي في أول السورة لكونها مسببة عن قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾، وما بينهما اعتراض يؤكد المعترض بينه وبينه؛ لأن هذا الوعيد الشديد تأكيد لإنكار الاشمئزاز، كأنه أمر ﷺ لا يحكم بيني وبين هؤلاء الذين اجترؤوا عليك إلا أنت.

لا يقال: لا يصح كون الاشمئزاز سببًا للالتجاء إلى الله، بل هو سبب الاعتراض؛ لأنه يقال: زيد كافر بالله، فإذا مسه ضر التجأ إليه؛ لان الكافر يلتجئ التجاء المؤمن، كما ذكر في ركوب البحر(١).

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٩ ﴾

هذه شناعة أخرى لفعلهم، حيث اعترفوا عند مس الضر، إما في النفس أو المال، بأن لا كاشف إلا الله، وقد كانوا يشمئزون من ذكر الله؛ ولهذا عطف على قوله: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ ﴾، وما بينهما اعتراض يؤكد إنكار شنيع فعلهم، ولولا مناقضتهم وتعكيسهم لكان الواجب أن يفزعوا إلى من استبشروا بذكره، والإخبار بالإبصار بالنظر إلى الغالب، ثم إذا أعطاه الله نعمة إما بصحة أو غنى تفضلًا من الله، والتخويل مختص به، ادَّعى أنه حصل بعلاج وعلم بوجوه الكسب والسعي، أو علم بأني سأعطيه؛ لما لي من استحقاقه، فأضرب عن قوله بأن هذه النعمة التي خولناها هذا الكافر.

وتذكير الضمير [٧٦٦/ب] مع ذكر النعمة إما لإرادة شيء منها، أو أن (ما) في ﴿ إِنَّمَآ ﴾ موصولة، ويحتمل أن يقال: لإرادة المذكور، وتأنيثه في ﴿ هِيَ فِتۡنَةٞ ﴾ لتأنيث الخبر؛ لأنهما كشيء واحد، نحو: ما جاءت حاجتك. وجاء بمعنى: كان، أي: أي شيء كانت حاجتك فتنة؛ لأن عند حصولها يجب الشكر، وعند فقدها يجب، فهي فتنة حيث

(١) كالآيات: [يونس: ٢٢]، [الإسراء: ٦٧]، [العنكبوت: ٦٥].

يختبر به حال الإنسان، يقال: فتنت الذهب على النار ليعلم خلاصه، وأكثر الناس لا يعلمون أنها فتنة، أو أنها من الله سبحانه، فعلم أن المراد جنس الإنسان.

﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٥٠ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ۝٥١ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢﴾

أي: كلمة ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨]، قد صدرت عمن تقدمهم من الكفرة كقارون، ووافقه قومه أو رضوا به.

ويقرأ بالتذكير(١) لظاهر القول.

﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾ ما كسبوا من المال، أو عبادتهم والاعتقاد الباطل غير الله عن العذاب، بل أصابهم سيئات أعمالهم، فكذلك هؤلاء الذين يقولون: أوتينا هذه الخيرات على(٢) سيصيبهم سيئات عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم الفاسده.

﴿وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ الله في الدنيا والآخرة(٣) فائتين عذاب الله في الدنيا، كقتل بدر والقحط، والآخرة من النار.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ لإبطال أقوالهم؛ إذ المعنى: أن الله يوسع الرزق على من يشاء من عباده، ويضيق عليه، ولا بد له من سبب، وذلك ليس عقل الرجل وجهله؛ لأنا نجد الجاهل في السعة، والعاقل في الضيق، وليس ذلك بحسب اتصالات وأوضاع فلكية على اعتقاد بعضهم؛ لأنه قد يلد في وقت واحد سلطان وفقير، فليس للطالع تدخل(٤)، ومن هنا

(١) أي: (قَدْ قَالَهُ). ينظر: الكشاف للزمخشري (١٣٧/٤).

(٢) هكذا في جميع النسخ، والظاهر أن هناك سقطًا، ولعله بكلمة: (عِلْم).

(٣) في (الأصل، أ، د، ن): (الآخرين)، وفي (ح): (الأخرى)، وما أثبته من (ب، ج).

(٤) في (ب، ح، ج، د، ن): (مدخل).

علم بالبرهان القطعي أنه لا مؤثر في السعادة والشقاوة إلا إرادة الصانع القدير، قال الشاعر:

ليس السعد يقضي به المشتري ولا النحس يقضي علينا زحل

ولكنَّه حكم رب السماء وقا ضي القضاة تعالى وجل

وفي ذلك دلالات على كمال القدرة ونهاية الحكمة لمن شرح الله صدره بالإيمان.

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾

المراد بالعباد: المؤمنون على ما هو عرف القرآن، لا سيما وهو في معرض التعظيم، المسلم يسمى عبد الله، والمشرك عبد اللات والعزى.

ومعنى الإسراف على الأنفس: الإفراط في ارتكاب المعاصي، ووجه الربط لما كثر ذكر الوعيد عقبه بسعة رحمته. وفيه دليل على أن الله يعفو عن الكبائر لإطلاق الإسراف.

قالت المعتزلة: لو أجريت على ظاهرها لزم القطع بمغفرة جميع الذنوب، وأنتم لا تقولون به[١]. وأيضًا عقبه بالتوبة بقوله: ﴿أَنِيبُوا﴾، ولو غفر جميع الذنوب لما عقبه بالتوبة خوفًا من العقاب. وأيضًا يقرأ: ﴿لمن يشاء﴾[٢] أي: يتوب، ويقرأ منسوبة إلى النبي وفاطمة عليهما السلام: ﴿ولا يبالي﴾[٣]، وأيضا ظاهره إغراء بالمعاصي.

والجواب عن الأول: التزام ذلك؛ لأن الله يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، فمرتكب الكبيرة مغفور قطعًا، إما قبل دخول النار، أو بعده. وأما ذكر التوبة فلأنها واجبة

(١) مذهب المعتزلة: القول بخلود صاحب الكبيرة في النار إذا مات ولم يتب، بخلاف مذهب أهل السنة والجماعة والذين يقولون: بأنه يغفر لمن يشاء بالشفاعة أو بمجرد الفضل.

(٢) عن ابن مسعود. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٣٢)، شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٥).

(٣) وعن ابن مسعود أيضًا. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٣٢)، شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٥).

عندنا، وخوف العقاب قائم لأنه قد يعذب مدة ثم يغفر، والإغراء ممنوع لأنه لو لم يكن القرآن مشحونًا بالتهديدات العظيمة احتمل ذلك، وما قيل: إنه نزل في وحشي قاتل حمزة حيث خاف أن لا يقبل توبته كما سبق، أو في أهل مكة حين قالوا: زعم محمد أنه لا يغفر لعابد الوثن وقاتل النفس، وقد فعلنا، أو في عياش بن ربيعة ونفر المسلمين أسلموا، ثم فتنوا، فلا ينافي عموم اللفظ.

وفي الآية إشعار بسعة المغفرة من وجوه: ذكر العبد المشعر بالحاجة، والإضافة إلى نفسه، والنهي عن القنوط، وهو الأمر بالرجاء، وذكر لفظ الله الذي هو أعظم الأسماء، وتكراره، وتأكيد الذنوب بلفظ الجميع، ووصف النفس بما هو بناء المبالغة في الرحمة والمغفرة، والجمع بينهما، والإشارة إلى انحصار الصفتين فيه.

وقرئ: ﴿يا عبادي﴾ بسكون الياء وفتحها (١)، والاتفاق على الوقف عليها بإثبات الياء لكونها ثابتة في المصحف.

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

أي: توبوا إلى الله، وأخلصوا له العمل.

ولا يرد عليه قول المعتزلة: إن ذكرها بعد المغفرة دليل على عدم حصولها بغير توبة؛ لأن التوبة واجبة، فلا يلزم من ورود الأمر بها طعن في الوعد بالمغفرة. ولا يرد أنه لو كان الوعد بالمغفرة حاصلًا قطعًا لما احتيج التوبة؛ لأن المغفرة قد تكون بعد العقاب، ففائدة التوبة إزالة العقاب المستفاد من إثبات العذاب وعدم النصرة حينئذ.

(١) قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر وعاصم بفتح الياء، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائيويعقوب وخلف بغير فتح، وكلهم يقفون عليها بإثبات الياء. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٨٧).

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٥٥ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ ﴾

قيل: القرآن، وقيل: العزائم دون الرخص، أو المأمور دون المنهي. قال الحسن: (الذي أنزل ذكر القبيح ليجتنب عنه، والأدون لئلا [٧٦٧/أ] يرغب فيه، والأحسن ليؤتى به)، أو الناسخ دون المنسوخ، أو العفو دون القصاص.

ثم هدد بإتيان العذاب، أو الموت فجأة وأنتم عنه غافلون.

فإن قيل: كيف يحمل على اتباع الأولى والتهديد يشعر بأنه لو ترك لعذب؟

قلنا: لا دلالة فيه على أنه يعذب بترك ذلك، بل المراد المبادرة إليه قبل زمان لا يقدر عليه.

فإن قيل: كيف يحمل على القرآن، وذلك يشعر بنزول غيره على هذه الأمة؛ لأن المخاطب به العباد المذكورون؟

قلنا: لعل المراد بالمنزل سائر الكتب، وتلك وإن لم تنزل علينا، فهي كالمنزل باعتبار وجوب الإيمان بها، وإن لم يجب اتباعها في غير الأصول.

و﴿ أَن تَقُولَ ﴾ تقديره: كراهة أن تقول نفس عند نزول العذاب، أو لئلا تقول، أو قبل أن تقول، أو احذروا أن تقول إحدى هذه الكلمات الثلاث؛ إما كلهم، أو كل طائفة لكلة[1].

أولها: ﴿ يَٰحَسۡرَتَىٰ ﴾، والألف تدل على ياء المتكلم، ويقرأ بها[2]، وتنكير ﴿ نَفۡسٞ ﴾ لأن ذلك لا يقوله كل أحد، أو للتكثير كقول الأعشى:

---

(١) كذا في جميع النسخ، ولعلها مصحفة من (لكلمة).

(٢) أي: (يا حسرتي)، عن أبي جعفر. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص ٤١٥).

ورب بقيع لو هتفت بجوه أتاني كريم ينفض الرأس مغضبا

والبقيع: كل موضع فيه أرومة الشجر من نبات شتى، أي: أتاني فوج من الكرام لا كريم واحد.

والتفريط: إهمال ما لا يجوز إهماله، أي: قصرت في جانب الله، أي: في حقه، وهو إتيان أوامره والانتهاء عن نواهيه، أو في أمره، قال سابق البربري:

أَمَا تَتَّقِينَ اللهَ في جنبِ وامقٍ لَهُ كبدٌ حرَّى عليكِ تَقَطَّعُ

وروي: عاشق.

وقيل: في ذاته، أو قربه، ومنه: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء: ٣٦]، وهذا من مثل الكناية؛ لأنه إذا أثبت الأمر في مكان شخص فقد أثبت فيه، ومنه قولهم: لمكانك فعلت، أي: لأجلك، وفي الخبر: ((**إن من الشرك الخفي أن يصلي الرجل لمكان الرجل**)) (١). والفرق بينها وبين المجاز: أن يراد المعنى الموضوع للفظ (٢) ليدل على الغرض الأصلي، بخلاف المجاز، والحاصل أنه يترك التصريح بثبوت المعنى المراد بالكناية، ويثبت لشيء آخر له به تعلق، كقول الشاعر:

إنَّ السَّماحةَ والمروءةَ والنَّدى في قبةٍ ضُرِبَتْ على ابنِ الحَشْرَجِ

فلم يثبتها للممدوح، بل جعلها في قبة ضربت عليه.

وكذلك أثبت التقصير في شأن الجنب، والمراد: أمر الله أو ذاته، كما سبق بتقدير الطاعة، وتقدير هذا اللفظ لضرورة أنه لا معنى لقوله: فرطت في الله، و ﴿مَا﴾ في

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة (٤٢٠٤)، والحاكم (٧٩٣٦)، والبيهقي في الشعب (٦٨٣٢)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ بمعناه، وقال الحاكم: " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه "، ووافقه الذهبي، وحسنه البوصيري في مصباح الزجاجة، والألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٠).

(٢) في الأصل: (اللفظ)، والتصويب من: (ن).

﴿مَا فَرَّطتُ﴾ مصدرية، و ﴿مِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي: المستهزئين بأهل الطاعة، ومحل ﴿إِن كُنتُ﴾ النصب على الحال، أي: فرطت وأنا ساخر، وما قيل: إنه خبر عالم في بني إسرائيل له مال أنفقه في الفسق لتغرير الشيطان إياه أن يتوب، ففاجأه ملك الموت في ألذ حالة. وإن صح فالنظر إلى إطلاق اللفظ.

﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾

وثانية الكلمات أن تقول: لو أن الله أرشدني إلى طريقه لكنت من الذين يتقون الشرك. وقيل: لو ردني مرة أخرى لكنت من المتقين بقرينة الكلمة الثالثة وهي: يقول عند رؤية العذاب: لو أن لي كرة إلى الدنيا فأكون من المحسنين في الاعتقاد والعمل، فيقال له حينئذٍ: قد جاءتك آيات القرآن، وهو رد من الله لما تضمنه ﴿لَوۡ﴾ من معنى نفي الهداية. وفصل الجواب عن قوله: ﴿لَوۡ﴾ لأن تقديم الجواب يفرق النظم الحاصل بين مجموع هذا الكلام، حيث هو كالكلمة الواحدة بتأخير الجواب المشعر بأن ما عدا الجواب تتمة الكلام السابق، ولو قدم لأوهم أنه تم الكلام عنده، ومن حيث اللفظ يقع التفريق بين القرائن الثلاث، وتأخير الكلام المردود عليه، وهو ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ يخل بالنظم اللائق بالوجود؛ لأن التعلل بفقد الهداية، وبمعنى الرجعة بعد التحسير(١) بالتفريط، والآية لا تدل على [أنه لا تأثير لقدرة الله في فعل العبد بأن يقال: وصفهم بالتكذيب يدل على](٢) أن الفعل لهم؛ لأن هذا معارض بآيات تدل على أن الله يضل ويهدي، كما أضل المبتدعة المثبتين آلهة لا نهاية لها بإثبات الفعل للعبد لخلقه، ويعزلون الله عن أن يكون ذلك بتقديره، ويجعلون صفات الله

(١) في (ب، ح): (التحسر).

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في: (ن).

حادثة للزوم قدماء من غير أن يفرقوا بين ذات القدم وصفته، تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، وأيضًا قد سبق ما يدل على أن الكسب من العبد هو مصحح الإسناد إليه.

ويقرأ بالتأنيث للنفس[1]، وأما التذكير فللمعنى.

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

هذا وعيد ووعد، والرؤية رؤية البصر، والجملة حال عن المفعول، واكتفى فيها بالضمير، والمراد بالكذب وصف الله بما لا يجوز؛ كاتخاذ الولد، وتحريم ما لم يحرم، وكل ما لا يصح اتصافه به؛ كقول اليهود والنصارى والمشبهة وغيرهم. وقيل في قوله: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ [الزمر: ٥٧]؛ لأن مفهومه: أضلني، وهذا لا يناسب وصفهم بالتكبر، فهوانه لا يناسب أن يقول: أنا لا أقدر، وسبب السواد ما ينالهم من الشدة [٧٦٧/ب]، وهو مخالف لأنواع السواد.

ولما كان الجهل ظلمة، والظلمة تخيل كأنها سواد، فسواد قلوبهم من الجهل بالله، والكذب على الله أوجب سواد الوجوه. والجملة مفعول ثانٍ لـ ﴿تَرَى﴾ إن كان بمعنى: يعلم، وإلا فحال.

ويقرأ: ﴿يُنْجِي﴾[2]، قال في "المفاتح": "إن حمل الاتقاء عن كل الكبائر فاسد، والتعصب يحمل الرجل على الكلمات المناقضة"؛ لما سبق من هذا القائل ما يشعر به، ثم قال: "بل الحق أن يقول المتقي الآتي بالاتقاء، ويصدق بصورة واحدة، ولهذا الحرف قلنا:

---

(١) أي: (بلى قد جاءتكِ آياتي فكذبتِ بها واستكبرتِ وكنتِ) بكسر الكاف والتاءات، وهي قراءة أبي بكر وابن يعمر والجحدري. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٥).

(٢) روح عن يعقوب مختلَف عنه، وكذلك رواه عبد الله بن بحر الساجي عن يعقوب، وقال أبو حاتم: "هو حسن". ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٨٥).

الأمر المطلق لا يفيد التكرار، فوجب حمله على الاتقاء عن الشيء الذي سبق ذكره، وهو الكذب على الله".

ولقائل أن يقول: لا يخفى أن المفازة مفعلة من الفوز، والمراد به الفلاح، وتفسيرها بالمنجاة تخصيصها بأهم أقسامه، وبالسعادة والعمل الصالح إطلاق لها على السبب، فيقول: الاتقاء يحتمل أن يحمل على الاتقاء من الشرك، فالمفازة عدم الخلود في النار ومن جميع المعاصي، فالمفازة المنجاة[١] المطلق، وعلى هذا النوع الذي هو ترك الكذب على الله، والمفازة عدم سواد الوجوه، واللفظ المطلق صالح للكل، والأولى الحمل على النجاة من العذاب، وسببها العمل الصالح؛ ولهذا فسرها ابن عباس بالأعمال الحسنة، وقرئ بالجمع [٢] ليناسب ضمير الجمع، ويكون المراد بالمصدر أنواعه، والباء صلة ﴿يُنَجِّي﴾ جاءت للسبب، وعدم مس السوء لبيان حالهم، فهو حال، أو استئناف يبين وجه الفوز، ولعلة[٣] نفي الحزن عنهم.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾

فيه رد على المجوس والزنادقة، حيث لم ينسبوا إلى الله الشرور [٤]؛ كالأمراض والهوام، وذلك لأن إطلاقه يدل على أنه خالق الخير والشر والإيمان والكفر، وفيه دليل على كون أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، وتفسيره بالتقدير خلاف الظاهر.

---

(١) في (ب، ح، ن): (النجاة).

(٢) أي: ﴿بِمفَازَاتِهِم﴾، وهي قراءة عاصم في رواية أبي بكر وحمزة والكسائي وخلف. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٨٥).

(٣) في جميع النسخ عدا (ح): (ولعل)، وما أثبته من (ح).

(٤) من حسن الأدب مع الله تعالى عدم نسبة الشر إليه، وإن كان هو خالقه وموجده سبحانه؛ ولذلك كان النبي ﷺ يثني على ربه تبارك وتعالى بقوله: ((**الخير كله بيديك، والشر ليس إليك**)) ، رواه مسلم (٧٧١)، فكل الأمور السيئة كما يقول ابن القيم: قدرها الله سبحانه وقضاها لحكمته، وهي باعتبار تلك الحكمة نوع من إحسانه، فإن الرب سبحانه لا يفعل سوءًا قط، بل فعله كله

=

والله متولي التصرف في الأمور كلها، وأمرها موكول إليه، وهو القائم بحفظها وتدبيرها، وهذا أيضًا يدل على أن فعل العبد مخلوق له، وإلا لما كان أمره موكولًا إليه.

و ﴿مَقَالِيدُ﴾ جمع مقليد، أو مقلاد، كمفتاح. وقيل: الكلمة أصلها فارسية عربت، وهو من باب الكناية؛ لأن حافظ الحواس ومدبر أمرها هو الذي يملك مفاتيحها، ومنه يقال: أُلقِيتْ مقاليد الملك إلى فلان، وتمام البحث فيه يطلب من قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وفيه دليل على زيادة الاختصاص؛ لأن الخزائن لا يدخلها إلا من بيده مفاتيحها.

وسأل عثمان رضي الله عنه النبي ﷺ فقال: ((**ما سألني عنها أحد، تفسيرها: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير**)) (١).

والمعنى: أن هذه الكلمات اختص سبحانه بتوحيده (٢) وتمجيده (٣) بها هي مفاتيح خيرات السموات والأرض، من تلفظ بها أدركها.

وقيل: لا ينزل ملك، ولا قطرة، ولا ينبت نبات، إلا بإذنه.

= حسن وخير وحكمة، كما قال تعالى: بيدك الخير. وقال أعرف الخلق به ﷺ: والشر ليس إليك، فهو لا يخلق شرًا محضًا من كل وجه، بل كل ما خلقه ففي خلقه مصلحة وحكمة، وإن كان في بعضه شر جزئي إضافي، وأما الشر الكلي المطلق من كل وجه فهو تعالى منزه عنه وليس إليه. انتهى من شفاء العليل (ص١٦٩).

(١) أخرجه الطبراني في الدعاء (١٧٠٠)، وعزاه المنذري في الترغيب والترهيب (١/٣١٥) لابن أبي عاصم وأبي يعلى وابن السني من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال: "فيه نكارة، وقد قيل: موضوع، وليس ببعيد"، وحكم عليه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٣٩٨) بالوضع.

(٢) في (الأصل، أ، ب، د، ن): (بتوحده)، وما أثبته من (ح، ج).

(٣) في (ن): (وتمجده).

والذين جحدوا دلائل قدرة الله واستقلاله بتدبير السموات والأرض، أو بهذه الكلمات الدالة على توحيده، وهو متصل بقوله: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ﴾، ويحشر الكافرين للتناسب، لكنه غير ليفيد أن ما يصيب الإنسان من الخير فمن الله، حيث أسند الإنجاء إلى نفسه، وأن ما يلحقه من الخسار وإن كان من الله، فبسبب تفريطه بإبطال الاستعداد، وما يصيبه من الخير فبفضل الله تعالى.

والتصريح بالوعد والتعريض بالوعيد لسبق الرحمة، ويجوز أن يتصل بقوله: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي: من هذا شأنه فلا خاسر أعظم ممن يكفر بآياته الدالة على توحيده؛ ولهذا خص الخسار؛ لأن لغيرهم حظًّا من الرحمة والثواب في الجملة.

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

لما قدم أن الكافر بالآيات هو الخاسر، رد النبي عليه السلام على قريش دعاءهم إياه إلى دين آبائه، ونسبهم إلى الجهل بتوحيد الله، فكأنه قال: بعد هذه الدلائل والمواعيد أعبد غير الله؟!

و﴿ تَأْمُرُوٓنِّىٓ ﴾ اعتراض بيَّن به أمرهم حيث قالوا: استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك، ومعنى ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾: أنه على فرض الوقوع يلزم الإحباط، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أدب من الله للرسول عليه السلام، وتهديد لغيره؛ لأن الله عصمه من الشرك. وعلى هذا فالمراد: بيان حكم الآية في ذلك، وإقناطه الكفرة وإفراد الخطاب باعتبار كل واحد، وتغليب المخاطب وعدم تقييد الإحباط بالموت عليه قيل: يحتمل أن يكون من خصائص الرسل تغليظًا، وهو محمول على المقيد في قوله سبحانه: ﴿ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، واللام الأولى موطئة للقسم، والأخريان للجواب. وعطف الخسران على الإحباط عطف المسبب على [٧٦٨/أ] السبب، والخسران يحتمل أن يكون للإشعار بحبوط العمل، أو من حمل الخاسرين، ولعل الفرق أن الأول أخص، و ﴿ غَيْرَ ﴾ منصوب إما بـ ﴿ أَعْبُدُ ﴾ على

تقدير: أعبد غير الله فيما تأمروني، أفتأمروني أي: أتامروني بعبادة غير الله، والتقدير: أن أعبد، فحذفت مثل: أَحْضُرُ الوَغَى[1]، ويؤيده قراءة: ﴿أَعْبُدَ﴾ بالنصب[2]، وهو بدل من ﴿غَيْرَ﴾، والياء المفعول[3] الأول، و(غير) الثاني، ولا يصح نصبه بـ ﴿أَعْبُدُ﴾؛ لأن الفعل مع أن مقدر بالمصدر، فلا يتقدم عليه معموله. وقيل: لما حذفت (أن) زال ذلك الاعتبار وهو غير مرضي عند المحققين. وقرئ: ﴿تَأْمُرُونَنِي﴾ بإظهار النونين، وحذف الثانية[4].

و﴿بَلِ﴾ لِرَدّ ما أمر الكفرة به من عبادة الصنم، ويدل عليه تقديم الله؛ لأنه في قوة: لا تعبد غير الله، ووحده وأطعه، والأمر بالشكر على إنعام الله في هذا المقام يشعر باختصاص موجبه، وهو الهداية إلى التوحيد.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

أي: ما قدروه في أنفسهم حق عظمته، أي: ما أثبتوا له من الوصف ما يليق به، حيث أشركوا معه غيره؛ وذلك لأن القَدْر ما عليه الشيء من مساواة أو زيادة أو نقصان، أي: ما قدروا فيه حق التقدير.

---

(١) جزء من شطر بيت: أَلاَ أَيُّهَذَا الزَّاجِري أَحْضُرُ الوَغَى.

(٢) ذكرها ابن خالويه من غير نسبة. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٣٢).

(٣) في (ح): (للمفعول).

(٤) قرأ أبو جعفر ونافع: (تأمرونِيَ) خفيفة النون مفتوحة الياء، وقرأ ابن كثير: (تأمرونِّيَ) مشددة النون مفتوحة الياء، وقرأ ابن عامر: (تأمرونَني) بنونين والياء ساكنة، وقرأ الباقون: (تأمرونِّي) مشددة النون مرسلة الياء. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٨٥).

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ لبيان عظمة الله باعتبار القدرة الكاملة والاختصاص بها؛ ولهذا قال ابن عباس: (السموات والأرضون السبع كخردلة في يد أحدكم)(١)، ويلزم منه أن يكون تخريب العالم بأسره أسهل شيء.

روي في سبب النزول أن بعض أهل الكتاب قال للنبي ﷺ حين بدت نواجده، ولعل ذلك من التورية حيث لم ينكر عليه، والمراد المبالغة في سهولة التدبير والحفظ، كما يقال: الملك بين أصبعي فلان، ويراد بالقبض: ما يقبض بجمع الكف، والمراد المتصرف فيه، يقال: صارت الدار في قبضة فلان، والمراد في الآية: كمال التمكن من الملك؛ ولهذا حملت الآية على التمثيل والتخييل من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ولا مجازًا، لقولهم: شَابَت لُمَّة الليل والمراد بيان انتهاء ظلمته بطلوع الفجر، وذلك لما سبق أن الحق سبحانه منزه عن الاتصاف بالجسمانيات، وهل القائل يقول: إنما ضحك به، فهم ما يفهم علماء البيان، ولعل مراد القائل: إنه صرح بما عنده من العلم دونهم، فمن لم يؤوّل كما هو المنقول من السلف فلا يشرع في تأويله، ومن أَوَّل حمله على التمثيل أو التخيل، من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقية المجاز نحو القدرة، كما قال:

.... *** تَلقَّاها عُرَابَةُ باليمين(٢)

أو بقَسَمِه؛ لأنه حلف أن يطويها، والقبضة: المرة من القبض أطلقت بمعنى القبضة، وهي القدر المقبوض بالكف تسمية بالمصدر لخطفة السبع، بمعنى المخطوف كما قيل: الجزور أكلة لقمان، والقلة جرعته، أي: ذات أكلته وجرعته، أو على السبب أي: ذات قبضة؛ ولهذا أكد بالجمع، والمراد بالأرضين السبع أو جميع أبعاضها البادية والغائرة. ويقرأ

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٢٠/٢٤٦).

(٢) البيت للشَّمَّاخ، وتمامه: إذا ما رايةٌ رُفِعَت لمجدٍ *** تلقَّاها عُرَابةُ باليمينِ

أي: بالقوة، وعُرَابَة: اسم ملك اليمن. انظر: تفسير الثعلبي (٨/١٤٣)، لسان العرب، مادة: (عَرَب)، ومادة (يَمَنَ).

بالنصب[1]، ووجه اعتبار ظرفية لتنزيل المعين منزلة المبهم، ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ عطف على الأرض لأنها في حكمها.

ويقرأ: ﴿مَطْوِيَّاتٍ﴾[2] على الحال، وفسرت بالمستولي عليها، كالشيء المطوي عند الإنسان.

و﴿جَمِيعًا﴾ قيل: منصوب على الحال، مثل: هذا بُسْرًا أطيبُ منه رُطَبًا.

و﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه لله على ما يليق به من الصفات، فضلًا عن أن يكون له شريك في الحال أن هذه عظمته وقدرته.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ قد سبق المراد منه في النمل، أنه قرن أو جمع صُورة، وهي النفخة الأولى من الثنتين أو من الثلاث على ما اختلف فيه، ومحل ﴿أُخْرَىٰ﴾ إما الرفع صفة نفخة، على قراءة، أو النصب على قراءته [3]، والتقدير: نُفِخ واحدة، ثم نفخ فيه أخرى، حذفت الأولى لدلالة الثانية.

والصعق: حمل على أن المراد من القرع وشدة الصوت، ومن منع فلقوله: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وأراد مغشيًّا عليه. والمستثنى: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، وقيل: الشهداء، أو موسى صعق مرة، أو الروح، أو سكان العرش والكرسي.

ونفخ في الصور مرة أخرى، وحسن الحذف لدلالة الأولى عليها، وروي أن بينهما أربعين، ولم يتعين المراد منها، ونظرهم حينئذٍ بتقليب الأبصار في الجهات، كمن فاجأه

---

(١) عن اليماني. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٦).

(٢) عن عيسى بن عمر. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٣٢)، شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٦).

(٣) أي: في قوله تعالى: ﴿نُفِخَ في الصُّورِ نفخةٌ واحدةٌ﴾ [الحاقة: ١٣]، فالرفع هو قراءة العامة، وقرأ أبو السمال: ﴿نفخةً واحدةً﴾ بالنصب. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٦١).

خطب عظيم، أو ماذا يفعل بهم. ويقرأ: ﴿قِيَـٰمًا﴾[1]، والخبر ﴿يَنظُرُونَ﴾ وهو حال من ضميره.

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

هذه الأرض غير الأرض المذكورة أولًا؛ لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، و ﴿دُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤]، فهي أرض يخلقها لمحفل القيامة، ولما استحال كونه سبحانه نفس النور -بخلاف قول المجسمة- حمل أنها أشرقت بعدله، [٧٦٨/ب] يقال للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك، وأظلمت البلاد بجور فلان، قال عليه السلام: ((**الظلم ظلمات يوم القيامة**))[2]، فيكون ذلك على طريق الاستعارة.

ويدل عليه أن الإتيان بالنبيين والشهداء لإظهار العدل، فيكونون شهداء على الناس، كما قال: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾ الآية [النساء: ٤١]، أو المستشهدون في سبيل الله، والأول يناسب الكلام في العدل، والثاني التعظيم بضمهم إلى النبيين، ويكفي لصحة الإضافة كون النور مخلوقًا لله تعالى، كما يقال لِمَلك أرضٍ: ربها.

ويقرأ: ﴿أُشْرِقَت﴾[3] ببناء المجهول من شرق بالضوء إذا امتلأت به.

و﴿ٱلْكِتَـٰبُ﴾ قيل: اللوح، أو كتاب الحفظة، وهي كتب الأعمال، ويحتمل أن يرجح الأول بالتوحيد، والثاني النظر إلى الجنس، أو الحساب، والجزاء من وضع المحاسب كتاب المحاسبة عنده، والنفي بعموم الجنس عن الجمع، ويقضي الله بين العباد بالعدل، ويوصل كُلًا

---

(١) عن زيد بن علي. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المظالم، باب الظلم ظلمات يوم القيامة (٢٣١٥)، ومسلم في كتاب البر والصلة الآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) عن ابن عباس وأبي البرهسم. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص ١٣٢)، شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٦).

إلى حقه من غير نقص شيء منه، وكونه سبحانه أعلم فائدته: أنه لا يدخله الخطأ في ذلك الحكم.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾

هذا تفصيل ما أجمل من التوفية.

و﴿زُمَرًاۖ﴾ أي: فرقًا متفرقة يتقدم بعضها على بعض، وقد يزمروا، قال:

احْزَأَلَّتْ زُمرٌ بعدَ زُمَر[١]

وذلك للتقدم في الضلال، واحدها: زمرة، واشتقاقها من الزمر، وهو الصوت؛ إذ الكثرة لا تخلو عنه أو من قولهم: شاةٌ زَمِرَةٌ: قليلة الشعر، وقيل: طبقات المتقين من الشهداء والعلماء والزهاد، و ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي التي تحكي الجملة بعدها، فسَوقُهم دَفعٌ قويٌ؛ لقوله تعالى: ﴿يُدَعُّونَ﴾ [الطور: ١٣]، وعند وصولهم إليها يفتح أبوابها، فإذا دخلوها قالت الخزنة لهم: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ﴾ من جنسكم، وإضافة اليوم إليهم لأن المراد وقت لقاء اليوم الذي يدخلون النار، وإطلاق اليوم والأيام لزمان الشدة مستفيض.

ومعنى ﴿حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾: أنه لا يمكن الخلاص من العذاب، ويعلم منه أن السعيد والشقي لا تنقلب حالهما، ووضع ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ موضع ضميرهم ليعلم الاختصاص بهم. وقيل: هو قوله سبحانه: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨]، [ويعلم منه أنه لا عذاب قبل مجيء الشرع وإلا لم يكن في هذا الكلام فائدة، وجواب الكفار: أن الرسل أتونا وتلوا

---

(١) البيت: إنَّ العفاةَ بالسيوبِ قَدْ غمر *** حَتَّى احْزَأَلَّتْ زُمَرٌ بعدَ زُمَر . أورده في الكشاف (٤/١٤٩).

الآيات علينا، ولكن حقت الكلمة، ولما سمعت الملائكة كلامهم قالوا لهم: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾][1]، ومنه يعلم أن علة دخول النار أنه حقت الكلمة التي تقدير الله ذلك.

وقول المعتزلة: لو كان كذلك لما بقي لقول الملائكة: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ فائدة، مقابل بالمنع لما سبق من اعتبار فعل العبد في الجملة، وكيفية الإسناد وتكبرهم عدم التفاتهم إلى قول الأنبياء، واللام للجنس، والمخصوص بالذم سبق ذكره، ولا منافاة بين تحقق كلمة العذاب وتكبرهم، أعني كون كلٍّ سببًا فإن تحققها مسبب عن تكبرهم بجعل الله سببًا، حيث علم وقوعه، وجعل له عنوانًا كما قال عليه السلام: ((**إذا خلق الله العبد للنار استعمل عمل أهل النار حتى يدخله به النار**))[2].

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

لفظ ﴿سِيقَ﴾ للازدواج[3]، غير أن سوق أهل النار بالهوان، وسوق أهل الجنة سوق مراكبهم؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين، فسوقهم الإسراع بهم إلى دار الكرامة، كما يكرم الوافد على الملك، فشتان ما بينهما.

وذكر الواو في الثاني دون الأول للإشعار بأن أبوابها قد فتحت قبل مجيئهم انتظارًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠]، وأبواب النار لا تفتح إلا بعد مجيئهم.

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في: (ن).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١٥٩٣)، وأبو داود في كتاب السنة، باب في القدر (٤٧٠٣)، والترمذي في كتاب التفسير، باب ومن سورة الأعراف (٣٠٧٥)، والنسائي في الكبرى (١١١٩٠)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. قال الترمذي: " حديث حسن"، وصححه ابن حبان (٦١٦٦)، وقال الحاكم (٤٠٠١): "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، وأقره الذهبي.

(٣) أي: للمقابلة بين الفريقين. انظر: رسالة اللباب ١٨٦/١ [تحقيق: إبراهيم الحكمي].

وفي الاستدلال نظر لجواز أن يكون ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ﴾ عند مجيئهم، وما قيل: الواو تزاد في جوابِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ضعيف؛ لأن الأصل عدمها. وقيل: الواو للحال، والجواب محذوف. وقيل: التقدير: حتى إذا جاؤوها وقد فتحت أبوابها، إذا محذوف للدلالة على أن لهم من الكرامة والنعمة ما لا يحيط به الوصف.

فإن قيل: ما الفرق بين دخول النار والجنة في أن أمر أهل النار بأن يدخلوا أبوابها، وأهل الجنة بأن يدخلوها من غير ذكر الأبواب؟

قلنا: لعل ذلك لأن هولها بحيث يكفي هان بهم دخول أبوابها، وفي دخول الجنة المقصود نيل كمال لذتها، فيؤمر بتمام الدخول، وكلمات الجنة لأهل الجنة ثلاث: الأولى: معناها السلامة عن كل الآفات، والثانية: أنهم طابوا عن دنس المعاصي، وطهروا من خبث الخطايا، ويعلم أنها دار الطيبين لأن الله طيبها من كل قذر فما يدخلها إلا مناسب، والثالثة: البشارة بالخلود، ولا استدلال للمعتزلة أن لا يدخلها من ارتكب المعاصي؛ لعدم طهارته لما ثبت أن الله يبدل سيئاتهم حسنات.

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [٧٦٩/أ]

لما شاهدوا ما أعد لهم تذكروا وعد الله بقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾[التوبة: ٨٩]، ونحوه، فحمدوه بإنجاز الوعد.

و ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ أرض الجنة. ومعنى الإرث: أنها كانت لآدم، أو من قول القائل: هذا القول أَوْرَثَ كذا، أي: اقتضاه، وطاعاتهم اقتضتها، أو الإشارة إلى كمال التمكن من التصرف، وأن الوارث لا ينازعه أحد كما أنهم ملكوا الأرض التي أقاموا بها ميراثًا منهم،

وصاروا مُلُوكها، وتصرفوا فيها كيف شاؤوا تصرف الوارث فيما يرثه. ويحتمل أن يراد الإرث من الكفار، كما سبق (١).

و ﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾ حمل أنَّ لكلٍ جنة لا تحتاج إلى محل غيره، لا أنه يتبوأ مكان غيره، وقيل: الجنة نوعان: روحاني وجسماني، والأول لا يحتمل المشاركة، بخلاف الثاني. و(نِعْمَ) من كلام الله، وكذا قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾، والمراد: بيان ثواب الملائكة عقي ب ثواب الإنسان، أي: كما أن دار ثواب المتقين الجنة، فدار ثواب الملائكة جوانب العرش.

ومعنى ﴿حَآفِّينَ﴾ بالعرش، أي: محدقين به، يقال: حف القوم بسيدهم، يحفون حفًا، إذا طافوا به.

وفي ذكر التسبيح إشعار بأن ذلك ثوابهم، أي: أعظم درجات الثواب الاستغراق في درجات التنزيه ومراتب التقديس، والقضاء بالحق بينهم أن درجاتهم في المعرفة مختلفة، لا يتجاوز كل حدها.

وقول ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ للملائكة على القضاء بالحق بينهم.

وذكر ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ بعد الحمد مشعر بأنهم حمدوا المنعم لا الإنعام، وهذا إذا لم يجعل من بقية أحوال المتقين، وإلا فيكون ذلك موافقة الفريقين في الاشتغال بحمد الله وتنزيهه، ويكون ذلك سبب زيادة التذاذهم بالتسبيح والتحميد.

وفيه تنبيه على أن أعلى درجات العليين وأعلى لذائذهم ذكر وصفي الجلال والإكرام، والاستغراق في سائر صفات الله سبحانه، وعلى هذا يكون القضاء بالحق بين البشر.

وفي قول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ اعتراف بكونه سبحانه موصوف بصفات الألوهية، وهي صفات الإكرام المشار إليها بقوله: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

---

(١) عند تفسير قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠ - ١١].

وكانت الملائكة يقولونها قبل خلق العالم، وهو قولهم: ﴿نَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: ٣٠]، والقائلون المقضي بينهم فيحتمل أن يكون جميع العباد.